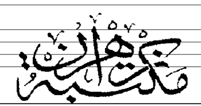
الضحك والمزاح في حياة النبي

صلى الله عليه وسلم

تأليف

إبراهيم أبو داه



١٥ شارع الشيخ محمد عبده

خلف الجامع الأزهر

ت/٥١٤٢٩٥٥ - ٠١٢٤٨١٤٦٣٥

إســـم الكتاب	الضحك والمزاح في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)
تأليــــــف	إبراهيم أبو داه
رقـــم الإيداع	٢٠٠٣/١٨٧٦
الترقيم الدولي	٩٧٧_٣٤٥_٠٤٥_٩
الناشــــــر	مكتبة زهران

نموذج رقم « ١٧ »

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتاليف والترجمة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation



السيد / إبراهيم أبو داود

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : المعجزة والمعراج في حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تاليفكم ....

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه ونشره على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبع .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

تحريرا فى ٢٥ / رمضان / ١٤٢٢ هـ
الموافق ١٠ / ١٢ / ٢٠٠١ م

مدير عام
ادارة البحوث والتاليف والترجمة

المقدمة

الحمد لله الذى ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ (النجم: ٤٣)

والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً «عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم».

أولاً: قد يظن البعض أن الصرامة والجدية تعنيان العبوس، وتقطيب الوجه، والبعد عن البشاشة، وأن ذلك أصل من أصول الدين، وخاصية من خصائص التدين، وصفة من صفات المتدينين.

فالالتزام بكتاب الله عند هذا الفريق يعنى التزمت وعلامته تقطيب الوجه، وأن التمسك بسنة النبى ﷺ لديهم تعنى الغلظة وعلامتها تكشير الوجه، لأنهم يعتبرون أن محاولة الضحك أو ربما مجرد التبسم يعنى الخروج على شرع الله، وأن المزاح أو المداعبة من الصفات المذمومة والمرفوضه لعدم تناسبها مع الرجولة علاوة على أن المزاح - الهزار - مع الآخرين يرونه كبيرة لا تغتفر، ويعدونه جريمة لابد أن يتوب المرء عنها، ويندم على أنه فعلها، ويعزم عزماً أكيدا على عدم العودة لمثلها أبداً مرة أخرى.

وهذا بلا شك ظن خاطئ ودليل جهل بشرع الله تعالى، وعدم فهم لكتاب الله أو سنة النبى ﷺ، فالجهل هنا أقبح من ذنب لا تمحوه النوايا الطيبة عند من ظنوا ذلك فعاشوا بين الناس بوجوه تكسوها الغلظة والكآبة والعبوس، ظنّاً منهم أن فى ذلك صدق على التزامهم بكتاب الله وبرهان حق على تمسكهم بسنة النبى ﷺ، فتوهموا أنها الصرامة بلا لين، والجد بلا هزل، والقسوة بلا رحمة، حتى وصل بهم الحال إلى الجفاء معتبرين أن الضحك يميت القلوب دوماً. وخوفاً على حياة القلوب من الموت سجنوها خلف الضلوع، وأوصدوها بالغم والعبوس والتكشير، فدفنوا قلوبهم بين الضلوع خوفاً عليها من فيروس الضحك القاتل، حتى تجمدت أوصالهم، وتصلبت فى العروق دماؤهم، فلا تراهم إلا قوالب بلا قلوب، وهياكل بشرية يعلوها العبوس والتقطيب، ويتعاملون بالقسوة والشدة.

فهل هذا الفريق على حق فيما فعلوا بأنفسهم وبغيرهم؟!

ثانياً: على جانب آخر، نجد فريقاً من عامة الناس والبسطاء ينظرون إلى الضحك على أنه نذير شؤم، وأن الشر قادم بعد الضحك لا محالة، فإذا انفرجت الأسارير، وضحك الناس لأمر ما، تراهم يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم داعين الله أن يجعل الأمر خيراً، فيقولون بعد أن يضحكوا: «أعوذ بالله اللهم اجعله خير».

وكأن الضحك الذى ضحكوه من قبيل الشر، أو نذير شؤم مؤكدين ذلك بقولهم: يا ترى إيه اللى هيحصل؟؛ محاولين التخلص من حالة الضحك، ويستبدلون الضحك بالعبوس وحالة الفرح والسرور بالنكد.

فهل الضحك نذير شؤم؟ وما علاقة الضحك بما يعقبه من حوادث بغيضة على النفس البشرية؟

ثالثاً: هناك عدة أفراد فى المجتمعات الإسلامية يتخذون من الضحك على الآخرين أو إضحاك فئة على فئة-من خلال السخرية والاستهزاء بالآخرين بكل ما يتعلق بهم من أعمال - يسمونها فنا وإبداعا.

فهل الضحك والفن والإبداع يعنى السخرية من الآخرين والاستهزاء بهم، وبأعمالهم وألوانهم وأشكالهم؟

رابعاً: هناك فريق آخر جعل حياته كلها فصولاً من الهزل واللهو، وقسمها على أبواب من العبث والسخرية، وأن أفضل أسلوب فى الحياة هو الاستظراف من خلال السخرية من الناس والتهكم عليهم، والاستهزاء بهم، وإطلاق القفشات والنكات على عباد الله تعالى.

فهل الاستظراف أفضل أسلوب للحياة؟

من بين أصحاب كل هذه الفرق، من يحرم ويجرم الضحك فاستحب العبوس على البشاشة، ومنهم من اعتقد أن الضحك نذير شؤم تأتى بعده المصائب، فيسترجعون حالة النكد لتحل محل حالة الضحك، ومنهم من اتخذ السخرية

والتهكم على الناس وسيلة لكسب عيشه، بل والتربح منها، كل هذا يؤكد أن هناك خللاً ما، وأن الأمور تحتاج إلى إعادة صياغة.

ولا يمكن لنا أن نعرف الخطأ من الصواب فى أمر الضحك، أو الحق من الباطل، فيما ينبغى أن يكون عليه حال الناس، إلا بالوقوف على حياة النبى ﷺ، ونبحث عن موقفه عليه الصلاة والسلام من التبسم والضحك والمزاح، لنعرف أى الفرق على صواب وأيها على خطأ.

وفى رحلة البحث عن التبسم والضحك والمزاح فى سيرة النبى ﷺ سنقف على الحقيقة ونعرف الإجابة عن كثير من الأسئلة التى تدور حول هذا الموضوع، وأهم تلك **الأسئلة:**

هل التدين الصحيح يعنى العبوس وتقطيب الوجه؟ أم أن التدين الحق على العكس من ذلك تماماً؟ وهل كان النبى ﷺ عبوساً أم كان أبش الناس وأكثرهم تبسماً؟ وهل يجوز أن نجعل السخرية والتهكم وسيلة لكسب العيش والتربح؟

وما أفضل وسيلة لنعيش بها حياتنا؟ هل نقضى حياتنا فى هزل وعبث ولهو، حتى لا نتجمد ونصاب بالملل والقلق والاكتئاب والأمراض النفسية؟

أم أن الحياة لا مكان فيها للهزل ولابد أن نعيشها بجد مطلق لا يعرف الترويح عن النفس، أو أن نلتزم التزاماً صارماً لا يتخلله ضحك، أو أن نحافظ على قلوبنا بالحزم الذى لا يتأتى معه مزاح أو مداعبة؟

ولكى نعرف الإجابة الصادقة عن كل هذا والمنهج السليم من بين هذا، فلابد أن نستعرض - ونتعرض - لما روى عن النبى ﷺ، وما كان عليه ﷺ فيما يتعلق بالتبسم والضحك، والمزاح والمداعبة، وكيف تعامل مع كل هذه الصفات البشرية لنتأسى به ونقتدى، كما أمرنا الله تبارك تعالى بأن نجعل من النبى ﷺ أسوة حسنة لنا وقدوة طيبة خالدة نقتدى بها ونهتدى تحقيقاً لقوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١)

والغاية من وقوفنا ومعرفتنا لهذه الجوانب فى حياة النبى ﷺ لنقتدى بها ونهتدى، ونستمد منها ما نقوّم به اعوجاج حياتنا فى هذا الشأن، وأن نعدل من أقوالنا وأفعالنا بما يتوافق مع ما كان عليه النبى ﷺ فى هذه الجوانب على قدر ما نستطيع لتكون سنة النبى ﷺ نبراساً ومنهج حياة لنا حتى لا نضل أو نضلل.

وقبل أن نستعرض فى هذا الكتاب تلك الجوانب فى حياة النبى ﷺ، ومقدار وجودها فى حياته، كان علينا أن نجنح إلى موضوع الضحك وماهيته ودواعيه، وأسبابه وغاياته، وأن نطوف حول آراء بعض علماء النفس، والاجتماع، وأن نركن إلى ما جاء فى كتاب الله تعالى حول مادة كلمة الضحك، وما جاء فى القرآن الكريم من قصص ومواقف ضاحكة، وما جاء فيه من تشبيهات ساخرة أطلقها القرآن الكريم على البعض، راسماً لهم صورة هزلية ضاحكة، ثم نقف فى كتب السنة والسيرة النبوية عند المواقف التى تبسم فيها النبى ﷺ، والمواقف التى ضحك فيها أو أضحك غيره فيها، ونكشف عن مزاحه وما كان يطلقه من مداعبات مع زوجاته عليهن رضوان الله، أو مع صحابته رضى الله عنهم، لتكون الخاتمة عن الضحك المقبول، والمرفوض، والمذموم منه والممدوح، الحسن فيه والسيئ، حتى نأخذ بالأحسن.

راجيين الله تعالى أن ينفعنا بما توصلنا إليه وأن ينفع غيرنا بما قرأ فيه.

إبراهيم أبوداه

المبحث الأول

كلام حول الضحك

الضحك والإنسان

يعد الضحك خاصية من خصائص الإنسان وحده، حيث يختص الناس بالضحك دون غيرهم من الكائنات الحية، لارتباط الضحك بالطبيعة الإنسانية، وبخصائص النفس البشرية دون غيرها من الكائنات التى تشاركها الحياة فى بيئة واحدة.

ويقول محمود عباس العقاد فى كتابه «جحا الضاحك المضحك»: «الضحك أحد العوارض النفسية للإنسان، فلا يشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلى أو العليا، بل يفتقد الكثير من علماء الأجناس البشرية، أن القبائل البدائية من الناس لم تكن تضحك، ولم ولن تضحك البتة ويرجع ذلك إلى أن حياة القبائل البدائية للإنسان كانت أشبه وأكثر قرباً لحياة كثير من الحيوانات، ولقرب التشابه الذى يصل إلى حد التماثل والتطابق بين الإنسان البدائى والحيوان، فإن الإنسان لم يضحك لأنه لم يكن قد ترقى فى درجات التطور والرقى إلى درجة تمكنه من تفهم الضحك والقيام به».

ويرى علماء النفس، أن الابتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والمداعبة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والسخرية والكوميديا، إن هى جميعها إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة، تكاد تكون مقصورة على الإنسان وحده دون غيره من الكائنات الحية.

وكل هذه المسميات ذات الفصيلة الواحدة، تصدر عن النفس البشرية فقط دون غيرها، لما جبلت عليه النفس البشرية من مجموعة من الخصائص التى قد لا تكون متوافرة بل تكاد تكون منعدمة فى طبيعة الكائنات الحية الأخرى.

فالنفس البشرية وحدها، جبلت على المتناقضات والتقلبات، فسرعان ما تمل حياة الجد، والصرامة، والعبوس، وتقطيب الوجه، فتتلمس فى الابتسام والضحك، والمرح والمداعبة والمزاح، وغير ذلك من مضحكات، وسيلة للترويح عن النفس من باب روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة.

ويسعى الإنسان بذلك إلى الهروب من الواقع، بحثاً عن منفذ يجد فيه فرصة للتنفيس عن نفسه فيروح عن آلامها، وما كابدته من الصرامة والجد، وما عانته من مشكلات وضغوط من جراء الحياة الرتيبة المملة، ولا سبيل لهذا الهروب والبحث إلا من خلال هذا الضحك وحده الذى يعد محصلة أو نتيجة نهائية أو حتمية لهذه الظواهر النفسية.

ومن خلال الضحك والفكاهة يخفف الإنسان عن ذاته كثيراً مما يثقل كاهل النفس من أعباء الحياة اليومية، ومن خلال الضحك يعبر الإنسان عن ذاته، ويفصح عما يكنه من شعور لا يجد وسيلة للتعبير عنه إلا من خلال الضحك الذى يعد أمراً خاصّاً بالإنسان وحده، لا يشاركه فى تلك المنزلة أى جنس من أجناس الحيوانات أو الكائنات الحية، لأن الإنسان وحده هو الذى يملك المؤهلات والقدرات التى تمكنه من الضحك.

وقد يكون رأى علماء النفس وعلماء الأجناس، وعلماء الاجتماع فيه ظلم كبير لكثير من الحيوانات التى نراها غالباً تلهو وتلعب بل وتمرح ويمازح بعضها البعض بما نراه من حركات وأفعال بين كثير منها، كما يحدث مع جميع أنواع القردة، وبين جميع الحيوانات التى يداعب أبناء البطن الواحدة أنفسهم أو أمهم وإن كنا لا ندرى بعدُ طبيعة لغتهم، وكيفية تعبيرهم عن ذاتهم، وربما يكون لهم نوع من الضحك الذى لا يظهر لنا ويختفى فيهم، لكن حتى هذا الحين لم يكتشف أحد نوعاً من الحيوانات الضاحكة سوى هذا الإنسان الضاحك.

الضحك واللغة

إذا كان الضحك من خصائص الإنسان دون غيره من الكائنات الحية، فإن الإنسان له أكثر من لغة، حتى إن اللغة الواحدة فيها أكثر من لهجة، ومع اختلاف اللغات وتعددها، وكثرة اللهجات وتشابكها، إلا أن لغة الضحك لدى جميع البشر واحدة، ولم يأت عالم ليقول إن هناك ضحكاً إنجليزياً أو عربياً أو فرنساوياً.

وإذا كان الضحك لغة واحدة عند جميع البشر، فإن جميع اللغات ترى فى الضحك معنى واحداً تشترك فيه جميع اللغات بالتعبير عنه، ولعل اللغة العربية لها حديثها عن الضحك وماهيته.. فما هو الضحك؟؛

يقول ابن حجر العسقلانى فى شرحه لصحيح البخارى:

«قال أهل اللغة: إن التبسم من مبادئ الضحك، والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور، ومنه ضَحك حتى بدت نواجذه.

فإن كان الضحك بصوت، وكان حيث يسمع صوته من بُعد فهو «القهقهة» وإن لم يسمع من بُعد فهو «الضحك».

وإن كان الضحك بلا صوت، ولا تظهر الأسنان من السرور ولا تُرى من أثره فهو «التبسم».

وتسمى الأسنان التى تقع فى مقدمة الفم بالضواحك، وهى أيضاً الثنايا والأنياب، وما يقع بعد الأنياب من أسنان تسمى ضروس وتعرف فى اللغة بالنواجذ، وهذه النواجذ لا تظهر عند التبسم ولا عند الضحك فى بدايته، ولاتكاد تظهر النواجذ إلا عند المبالغة فى الضحك، وقد ثبت أن النبى ﷺ ضحك فى كثير من المواقف حتى بدت نواجذه.

وكلمة «ضَحِك» تعنى الجمع .. فالضحك جمع لعدد من الضحكات أو جمع لضحوك متعددة.

والضحك كما يقول العقاد: ضحوك عدة إن صح التعبير، وليس بضحك

واحد، ونحن نضحك لأسباب كثيرة، ولسنا نضحك بسبب واحد فرد لا يتعدد، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحكتها التى تصدر عنها لا تصدر عن حالة غيرها، كأنما هى لغة كاملة على أسلوبها فى التعبير.

ويقول صاحب مختار الصحاح-محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى- فى كتابه: (ضَحِكَ) بالكسر (ضحكا) بوزن علم وفهم ولعب و(ضِحِكا) أيضاً بكسرتين، والضحك المرة الواحدة، و(ضحك) به ومنه ومعنى واحد.

وتضاحك الرجل واستضحك بمعنى واحد، وأضحكه الله، ورجل (ضحكة) بفتح الحاء كثير الضحك، وبسكون الحاء يُضحَك منه (ويضحك عليه) والأضحوكة ما يضحك منها.

أقسام الضحك وأنواعه

ينقسم الضحك إلى قسمين: إيجابى وسلبى.

القسم الأول: الضحك الإيجابى، وهو الضحك الذى يكون الباعث فيه والداعى إليه فى نفس الضاحك هو شعور الشخص بتفوقه على خصم مَّا، أو انتصاره فى رأى أو معركة بالفعل، أو اكتشافه لضعف ما فى خصمه ومنافسه.

القسم الثانى: الضحك السلبى، وهو الضحك الحزين المتجهم المتولد من شعور الضاحك بما فى الآخرين من نقص، فيهزأ بضعف الآخرين، أو وضعهم المالى، أو مركزهم الاجتماعى، أو يكون الباعث على الضحك ما يكتشفه الضاحك من عورات وعيوب فى غيره فيسخر منها ويهزأ بها.

فالضحك سخرية من عيوب، وعورات، ونقص فى الآخرين من قبيل الاحتقار للغير والازدراء منه، فإنما يعد ذلك من قبيل الضحك السلبى المرفوض عقلاً والمحرم شرعاً.

هذان قسما الضحك.. أما أنواعه فمتعددة لتعدد أسبابه، فهناك ضحك السرور والرضا، وضحك المزاح والطرب، وضحك السخرية والازدراء، وضحك العُجب والإعجاب، وضحك الشماتة والعداوة، وضحك العطف والمودة، وضحك المفاجأة والدهشة، وهناك ضحك المقرور، وضحك المشنوج، وضحك الساذج، وضحك اللاهى الغافل وضحك البلاهة، وغير ذلك من أنواع الضحك المتعددة والتى تقع جميعها فى حيزين أو قسمين، إما ضحك إيجابى مقبول، بل قد يكون ممدوحاً، وإما أن يكون ضحكاً سلبيّاً قد يكون مذموماً ومرفوضاً، حتى إن بعضه قد يكون محرماً من قبيل شرع الله تعالى.

وعندما نستعرض ما كان عليه النبى ﷺ سنرى أن تبسم النبى وضحكه ﷺ محصور فى الجانب الإيجابى المطلوب للترويح عن النفس، وتسليتها جزءا من الوقت، وكان خير ما يسر النبى ﷺ ويرضيه هو التعبير عن ذلك بالابتسام غالباً حتى لو كان المقام لغير ذلك.

وسنجد أن النبى ﷺ تبسم راضياً فى مقامات لا تتسع لمثل هذا التبسم عند كثير من الناس، فنراه ﷺ يتبسم عند دفن بعض الموتى، كتبسمه عندما وارى ولده إبراهيم ودفنه فى التراب، وعندما ذهب لزيارة قبر المرأة التى كانت تقوم بنظافة المسجد بعدما دفنوها بليل. وتبسم النبى ﷺ راضياً عندما أقبل إليه رجل من البادية يعلن دخوله الإسلام، وما إن أعلن ذلك حتى مات من لحظته، فتبسم النبى ﷺ، وعندما شاهد الملائكة تطعم هذا الرجل الغريب، كما ذكر ابن كثير فى تفسيره.

كذلك سنجد أن النبى ﷺ كان يمازح أصحابه ليروح عن أنفسهم، بل يأمرهم بالترويح عن القلوب ساعة بعد ساعة، ولكنه ﷺ لم يكن يمزح إلا بحق، ولم يكن يضحك إلا لصدق، وكان ﷺ يقول: (نحن نمزح ولا نقول إلا حقاً - رواه الترمذى والبخارى).

فكان ﷺ يبتسم ويضحك حتى تظهر نواجذه، إعجاباً ورضا وسروراً، ولم يثبت أنه ﷺ تبسم ساخراً من الآخرين، أو ضحك مستهزئاً بالغير، أو مزدرياً أو حتى شامتاً من خصومه.

لماذا نضحك

قد تكون كلمة «ضحك» وفعل «ضحك» كل منهما مغرياً بأن يفهم الإنسان الضحك على أنه مناف للأدب، ومتناقض مع الجد، وأن الضحك نوع من أنواع الاستخفاف، والظرف، وخفة الدم والظل، حتى ظن البعض أن الضحك لا يصدر إلا من سفيه، ولا يكون إلا من ذى بال خال لا يكابد الحياة، ولا يسعى إلى تحقيق النجاح.

واعتقد البعض أن الإنسان الكريم، وكل ذى مروءة، وذى مكانة بين الناس يأبى أن يتفوه بالأضاحيك، أو يصدر عنه ما يؤدى إلى الضحك أو يبدو منه تلك المنكرات والخبائث المضحكة، لأن ذلك لا يتناسب مع من له شأن بين الناس.

وهذا فى واقع الأمر فهم خاطئ، واعتقاد فاسد، لأن الإنسان مهما بلغ فإنه فى حاجة إلى الضحك، ولابد للعبوس يوماً ما أن يضحك فيه مهما كان عبوسه، ومهما كانت أحزانه وهمومه، وصرامته وجده، فلابد له من الضحك لحظة ما، لأن الضحك إحدى خصائص الإنسان التى لا يمكن له أن يتجاهلها أبد الدهر.

والإنسان فى صرامته وجده، وهمومه وعبوسه، سيجد نفسه تواقاً للهروب من تلك الحالت، مشتاقاً إلى التخفيف والترويح، طامعاً فى ابتسامة رقيقة، أو ضحكة تذهب عناء النفس، وتريحها مما لحق بها من ألم الجد الدائم، والصرامة الأبدية، والعبس المؤبد.

فالإنسان لابد له أن يضحك، ربما يضحك كثيراً من الوقت أو بعضاً من كثير أو قليلا من الوقت أو بعضا من قليل، فهناك من يضحك كل لحظة، وهناك من يضحك كل ساعة، وهناك من يضحك فى اليوم مرة أو مرتين على الأكثر، وهناك من يضحك كل أسبوع مرة أو مرتين.. المهم هناك شىء اسمه الضحك مهما اختلف الناس فى المواقيت.

وقد تكون الحالة الداعية للابتسام أو الضحك واحدة، لكن الناس يختلفون أحياناً فى الضحك من حالة إلى أخرى، ويختلف الضحك من شخص لآخر، رغم تشابه حالة الضحك فى كثير من الأحوال.

ويرجع اختلاف الضحك من شخص لآخر إلى اختلاف المزاج والثقافة والمعرفة والخبرات والوجدان بين الناس ومع ذلك فإن الجميع يضحك لأسباب قد تكون قاسماً مشتركاً بين الجميع رغم كل هذه الاختلافات.

ويشير العقاد إلى أن الضاحك المسرور قد يكون سروره زهواً بنفسه، أو احتقاراً لغيره، وقد يكون سروره فرحاً بغيره لا زهواً بنفسه، ولا احتقارا لغيره.

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس التى شغل نفسه بالبحث عن تلك العيوب والتنقيب عليها، وما أن يجدها ويحصل عليها حتى يستريح لذلك ولا يتمنى، ولا يريد أن يتخلص الناس من هذه العيوب التى اكتشفها ببحثه عنها، فيظل ضاحكا ساخراً من عيوب اكتشفها بنفسه.

وقد يضحك من عيوب فى بعض الناس ظهرت له بغتة من قبيل المصادفة الفجائية، بدون أن يكلف نفسه مشقة البحث عنها، فيكون ضحكه من عيوب الناس تنفيساً عن عاطفة مكبوتة لديه، أو شعورا يعانى منه، وربما يكون ضحكه انتقاداً لتلك العيوب والمثالب التى لا يستريح إليها العامة من الناس، ويريد تغيير تلك العيوب أو التحذير منها أو البعد عنها. ومن يضحك من سلوكيات الأحمق، قد يضحك بسبب الحماقة ذاتها لما فيها من عيوب وغباء وبله وسفه وسخف يدفع كل هذا إلى الضحك من الحماقة ذاتها.

وقد يكون الضحك من سلوكيات الأحمق ذاته، وما يصدر عنه من سلوكيات حمقاء ضارة بصاحبه، وتورده مورد الاستهزاء به أو الهلاك له، وغالباً ما يكون الضحك من الأحمق والحماقة معاً.

فالناس يختلفون حول أسباب الضحك، لكنهم فى النهاية يضحكون، ولكثرة أسباب الضحك تكون كثرة الضحك، ولاختلاف طبائع البشر وتنوع أمزجتهم ووجدانهم تختلف الدوافع أيضاً لدى الناس.

فعلماء النفس يرون أن الضحك ناشئ فى الأصل عن شعور بالانتصار فى معركة جسمية بدائية، الإنسان قديماً كان يضحك عندما ينتصر، بخلاف ما ذهب

إليه علماء الأجناس الذين يرون أن الإنسان البدائى لم يعرف الضحك، ولم يدركه، رغم أنه أدرك الانتصار على ما حوله، واختلج فى نفسه الشعور بالنصر، ذلك الشعور الذى يعول عليه علماء النفس منشأ الضحك الذى هو عندهم ناشئ عن أصل بدائى ثم صار بعد ذلك تقليداً إنسانيّاً حتى أصبح من خصائص النفس البشرية.

والضحك عند علماء النفس مبعثه الأساسى هو الشعور بالانتصار، كما يقول مارسل بانيول: إن الضحك نشيد انتصار، لأنه تعبير عن استعلاء وقتى يكتشفه الإنسان على حين فجأة، وذلك لأن الشخص حينما يتحقق من تفوقه على شخص ما يدعوه ذلك إلى ما يثير فى نفسه الضحك زهوا بانتصاره.

حتى إن بعض علماء الدين كالإمام محمد عبده، يرى أن من شأن القوى المستعز بقوته، المفتون بقدرته، المتطاول بكثرته أن يضحك مما يخالف المنزع.

فالضحك تعبير عن الشعور بالانتصار فى أية صورة من صوره، كالشعور بالتفوق على الغير، والتقدم عليهم. وكما يقول توماس هوبز: «الأصل فى الضحك هو شعورنا بالتفوق أو الاستعلاء، أو التميز».

ويرجع علماء النفس عملية الضحك..ولماذا نضحك من خلال المصدر الانفعالى لدى الإنسان، فما دام سلوك الإنسان ناتجاً دائماً وفى كل الأحوال عن انفعال ما، فإن الضحك أيضاً ينتج عن انفعال ما أثار سلوك الضحك لدى الإنسان الضاحك.

فانفعال الغضب مثلاً يولد لدى الإنسان الفكاهات والنوادر العدوانية، فيكون الضحك هنا نابعاً من انفعال عدوانى بين خصمين، ولكن الخصم الأقوى، والأقدر منهما على تحقيق النصر لنفسه على الآخر، هو الذى يستطيع أن يضحك على اعتبار أن الضحك تعبير عن الشعور، والإحساس بالانتصار والتفوق.

وكذلك انفعال الغرور والتعالى قد يولد لدى الإنسان الشعور بالزهو واحتقار الآخر بما يدفعه إلى الضحك، ولذلك فإن «بودلير» عندما صاغ مقارنة بين الإنسان وغيره من الحيوانات فى هذا الشأن، وجد أن الإنسان إنما اختص

بخاصية الضحك لأنه متعال متكبر .. أشار «بودلير» إلى ذلك قائلاً: الإنسان يضحك لأنه مغرور متكبر، يظن أنه سيد الخليقة.

وأيضاً فإن انفعال الضيق والضجر من سلبيات الواقع والإحساس بالعجز تجاه تغير تلك السلبيات أو تحويلها إلى إيجابيات، يجعل من ذلك مادة للضحك بشكل تهكمى نقدى لهذه السلبيات والمثالب بشكل فكاهى ساخر ضاحك.

كذلك الكبت النفسى يؤدى إلى انفعال عكسى ينتج عنه اللجوء إلى الفكاهة والنكت للتنفيس عن الشعور بالكبت والإحساس بالإحباط.

وانفعال الحزن من شيوع النقائص والنقائض ينتج عنه انفعال ينشد المجابهة لتلك النقائص وهذه النقائض من خلال عرضها بأسلوب وبشكل هزلى يؤدى إلى الضحك.

ونحن نضحك لارتباط الضحك بالانفعال والتأثر بما هو محيط بنا، ويشاركنا الحياة فى بيئة واحدة نؤثر ونتأثر بما حولنا، وكل ما يثير فينا الشعور بالضحك فيأتى الضحك على الآخرين أو منهم، وقد يأتى أيضاً ويكون من أنفسنا وعلى ذاتنا.

فنقد الذات أيضاً قد يثير الضحك، وكل منا أحياناً عندما يواجه ما مر به من حوادث، وكيف انفعل فيها وتأثر بها وما نهجه من سلوك حيالها يجد نفسه منخرطاً فى الضحك طويلاً على تصرفاته التى قام بها، وعلى حاله آنذاك خاصة عندما يكتشف أن الأمر لم يكن يستحق كل هذا.

ويقول العقاد: ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سروراً برجحانه، فهو يضحك فى الأحوال التى يكون فيها رجحانه غير معروف وغير محدود فالرجل المعروف المكانة ليس يضحك من تصرف الصعلوك الوضيع، وإن كان تصرف الصعلوك الوضيع مضحكاً فى ذاته، ولكن الرجل المعروف لا يضحك، إلا إذا كانت هناك سخرية مَّا من أهل طبقة ما، ليباهى بذلك طبقته، أو من أهل بلد ما ليباهى ببلاده.

وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كانت السخرية لا تناله وحده، بل تنال غيره، خاصة إذا كان هذا الغير غير محبوب حتى وإن كان من طبقته أو من بلده، فالضحك عليه ناتج من كراهية له.

ويرى النفسانيون: أن من أسباب الضحك وبواعثه الذكاء عند الضاحك، فكلما ارتفعت نسبة الذكاء لدى شخص ما كان المجال لديه أرحب لوجود الحس الفكاهى والضحك.

وعلى العكس، كلما قلت نسبة الذكاء لدى شخص ما انحسر المجال وضعف لديه الحس الفكاهى، ويكاد أن ينعدم إذا انعدمت نسبة الذكاء، فتكون القدرة على الضحك من عدمها عند النفسانيين مرتبطة وتدور مع نسبة الذكاء قوة أو ضعفا، فالإنسان الذكى يضحك على قدر ما يتمتع به من ذكاء، والغبى نادراً ما يضحك.

كما أن الغباء غالباً ما يجعل أهله محل سخرية، حتى إذا ضحكوا فيكون ضحكهم ضحك السذج الذين لا يكاد يتعدى ضحكهم ازدراء أو سخرية من الشكل الخارجى أو المظهر غير المناسب للآخرين، ويكون ضحك قليل الذكاء متشابها مع الضحك البدائى الذى يكون معظمه من الاستهزاء بعيوب الآخرين الجسدية، أو عاهات موروثة أم مكتسبة، وهذا أمر منطقى، لأن إدراك الأغبياء لم يتجاوز حد الرؤية البصرية، فينحصر تفكيرهم فى الشكل والمظهر.

وهذه اللغة المرفوضة والمعيبة فى الضحك شاعت وانتشرت فى كثير من حياة البعض، فقد ذاع نوع من العبث المضحك الذى يعتمد على السخرية من الغير والازدراء من الآخرين، بدون ضرورة أو داع، وتتساق الضحكات عليها بشكل بدائى ساذج فيكون كما يقول عنه الباحثون: «إن ضحك البدائى هو فى صميمه أشبه ما يكون بضحك الأطفال».

فهو ضحك ساذج بدائى تغلب عليه نزعة السخرية وروح الاستهزاء، فالإنسان البدائى يضحك فى العادة من عيوب الآخرين الجسمية، ونقائصهم الخَلقية، وعاهاتهم الجسدية، بينما نجد فى المجتمعات الراقية التى تؤمن بالقيم الرفيعة، وتؤمن بالرقى الأخلاقى، تؤكد فى سلوكها رفض بل تجريم الضحك على مثل هذه العيوب.

ومن المعروف أن الإسلام نهى عن السخرية من الآخرين، ونهى عن ازدراء الغير حين قال الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١)

ولم يثبت أن صدر عن النبى ﷺ أو عن الصحابة الكرام رضى الله عنهم أن ضحكوا سخرية من عيوب الآخرين الجسمية أو عاهاتهم البدنية، أو ضحكوا ازدراء للآخرين وتحقيرا لهم لفقرهم أو لجهلهم أو لمرضهم أو لتخلفهم.

على عكس ذلك تماماً، نجد أن النبى ﷺ ينهى عن معايرة الناس بعيوبهم، ويحرم السخرية من عيوبهم أو عاهاتهم أو نقائصهم الجسدية. فقد ثبت أن النبى ﷺ وجه لوماً شديد اللهجة إلى أبى ذر رضي الله عنه عندما عير رجلاً بلون أمه قائلاً له: يا ابن السوداء.

فزجره النبى ﷺ قائلاً: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». رواه أحمد.

فأدرك أبو ذَر حجم ما وقع فيه من خطيئة وأخذ يتبرأ من تلك الخطيئة حتى أنه رضي الله عنه وضع خده على التراب وطلب من الرجل الذى عيره أن يضع قدمه على وجه أبى ذر ليكون فى ذلك تكفيراً لأبى ذر عن غلطته التى ارتكبها.

فالضحك من عيوب الآخرين الخلقية، والسخرية من أحوالهم أمر منهى عنه فى الإسلام وقد أرشد النبى ﷺ المسلم حينما يطالع الناس من ذى العاهات، أو يرى عيوباً فى أبدانهم فيكون عليه آنذاك أن يشكر الله تعالى أن عافاه وبراه من مثل هذه العاهات والعيوب، قائلاً: «الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه».

هذا يعنى أن نراجع مواقفنا من الضحك والإضحاك، وأن نعيد النظر فى تلك الأعمال العبثية الساذجة التى لا هدف لها ولا رسالة اجتماعية فيها بقدر ما هى أعمال تظهر سخرية طبقة من طبقة، أو ازدراء فئة لفئة أخرى، أو تهكم جماعة على جماعة.

المبحث الثانى

أساليب ووظائف الضحك

أولاً: أساليب الضحك والإضحاك

هناك عدة طرق وأساليب يتبعها صانعو مادة الضحك وبعثه فى النفوس، ومن هذه الأساليب ما هو قديم، ومنها ما هو حديث، ونقف على بعض الطرق التى أوجزها محمد رضوان فى كتابه (طرائف العرب ونوادرهم)، وهى طرق وأساليب عربية قديمة، نقف أمامها لنرى، هل كان النبى ﷺ يتبعها أم كان عليه الصلاة والسلام له منهجه الخاص وأسلوبه المتوافق تماماً مع دعوته الكريمة، بعيداً عن تلك الأساليب والطرق والتى منها:

١- **قلب الأشياء:** وهى وسيلة عربية قديمة لا يتورع المتعامل بها فى قلب الحقائق والتحامق وتصنع الغباء بغية الوصول إلى الإضحاك. ومن أمثلة ذلك، ما وصل من أخبار عن الشاعر العباسى أبو العبر (ت ٢٥ هـ) كان يتردد على رجل يعلمه اكتساب القدرة على الإضحاك وكان أول دروس ذلك المعلم هو درس قلب الأشياء..

فيقول أبو العبر: كنا نقول إذا أصبح: كيف أمسيت، وإذا أمسى كيف أصبحت، وإذا قال تعالَ، تأخرنا إلى الخلف، وكان أبو العبر وزملاؤه يتحامقون أو يصطنعون الحمق.

وهذه وسيلة لا تليق برجل عاقل أو رجل تقى ورع، فما بالنا إذا كان الأمر يتعلق بنبى كريم جعله الله تعالى خاتماً للأنبياء، فلا يمكن أن يكون ذلك من شيم المسلم العادى أن يقلب الأشياء أو يقلب الحقائق من أجل إضحاك الآخرين، ولكنّ هناك أسلوب أقرب إلى ذلك، لكنه لا يعتمد على قلب الأشياء، بل يعتمد على أسلوب التورية فى البلاغة العربية.

وأسلوب التورية أن يقول المرء كلاماً يحتمل أكثر من معنى، أحدهما قريب والآخر بعيد، فيتوهم السامع أن المقصود هو المعنى القريب، بحيث يقصد المتحدث المعنى البعيد، وهذا ما حدث مع النبى ﷺ عندما سألته امرأة عجوز: هل ستدخل الجنة؟؛

فكان جواب النبى ﷺ لا يدخل الجنة عجوز؛ فحزنت المرأة، لأنها فهمت من قول النبى ﷺ أنها لن تدخل الجنة، لأنها امرأة عجوز، مع أن النبى ﷺ يقصد بكلامه معنى آخر، وهو أن أهل الجنة لن يكونوا من العجائز، لأن الله سبحانه وتعالى سيدخلهم الجنة على هيئتهم وهم فى مرحلة الشباب.

ولذلك عندما انصرفت المرأة من أمام النبى ﷺ وهى حزينة أرسل إليها من يبعث الطمأنينة فى قلبها، ويدخل البهجة والسرور عليها ويخبرها بأنها ستدخل الجنة على هيئتها عندما كانت فى مرحلة الشباب.

٢- **المفارقة:** وهى عند العرب أقرب إلى أسلوب قلب الأشياء وقلب الحقائق، من خلال استغلال المفارقة الناتجة عن ربط الأشياء المتنافرة، والتى لا صلة فيما بينها، كأن يقول سمعت بأذنى وهو يشير إلى عينيه أو يقول رأيت بعينى وهو يشير إلى أذنيه.

واستخدام أسلوب المفارقة لبعث الضحك بهذا الشكل لا يليق إلا بالمشخصاتى.. والذى يتحامق لربط الأشياء المتباعدة لإضحاك الناس، وهذا أسلوب لا يليق بمسلم عادى، فمن باب أولى لا يمكن أن يسلكه النبى محمد ﷺ.

وقد كان النبى ﷺ لا يستغل أسلوب المفارقة لخلق موقف ضاحك أو إضحاك الناس، لأن النبى ﷺ لم يكن من صفاته أو سلوكياته إضحاك المسلمين لكنه عليه الصلاة والسلام إذا ما حدثت مفارقة ما بين أمرين متباعدين فلا يجد عليه الصلاة والسلام غضاضة فى أن يضحك من تلك المفارقة حتى تبدو نواجذه.

ومن تلك المفارقات التى أضحكت النبى ﷺ ما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ يوم الجمعة والنبى على المنبر فقال الرجل: يا رسول الله قحط المطر فاستسق ربك..

فنظر النبى ﷺ إلى السماء وما نرى سحابا - أى لم يكن بالسماء أية سحابة - فاستسقى النبى ﷺ - أى طلب من الله تعالى ودعاه أن ينزل المطر على المدينة.

فنشأ السحاب بعضه إلى بعض، ثم مطروا حتى سالت مثاغب المدينة، فما زالت إلى الجمعة المقبلة ما تقلع-أى أن المطر لم يتوقف نزوله من السماء حتى جاءت الجمعة التالية، ثم قام ذلك الرجل والنبى ﷺ يخطب، وقال الرجل: غرقنا، فادع ربك يحبسها عنا.

فضحك النبى ﷺ - من تلك المفارقة - ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا مرتين أو ثلاثة».

٣- **الأخطاء المذهلة:** أيضاً من أساليب الضحك وأسبابه استغلال الأخطاء المذهلة، وهناك من يعمد إلى صياغة تلك الأخطاء والمبالغة فى وصفها وتشخيصها وتكبيرها لكى يضحك منها أو يضحك الغير عليها.

وقد كان النبى ﷺ يضحك من تلك الأخطاء المذهلة من بعض الناس بدون عمد منهم أو تصنع أو اختلاق، فكثيرا ما كانت تقع أخطاء من بعض المسلمين فى تقدير أمر ما أو فهم أمر ما أو حكم ما.

فعلى سبيل المثال، ما رواه البخارى عن عدى بن حاتم الطائى من أنه عندما سمع آية تحديد وقت الإمساك عن الطعام فى ليل رمضان، وقبل أذان الفجر فى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧)

عمد عدى إلى عقالين أحدهما أبيض والآخر أسود ووضعهما تحت رأسه وأخذ يأكل وهو ينظر إليهما دون أن يستطيع التمييز بين لونهما حتى ظهرت الشمس من اليوم التالى فى شهر رمضان.

ثم ذهب عدى إلى النبى ﷺ وأخبره بما كان، فكان ما وقع فيه عدى من خطأ داعيا إلى الضحك،ثم بين له النبى أن الخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر أنهما سواد الليل وبياض النهار، وليس سواد أو بياض العقال.

٤- **الأجوبة المسكتة:** وهى تلك الأجوبة التى لا يجد السائل بعدها ما يقوله أو يعلقه لما فى الإجابة من إقناع أو مباغتة للسائل، من حيث لا يتوقع فيكون عدم

توقعه أن تأتى الإجابة من هذا الجانب، فتحدث المفاجأة وتكون سبباً من أسباب الضحك.

وقد وقعت عدة أجوبة من هذا القبيل، سواء كانت من رسول الله ﷺ أو جاءت من صحابة رسول الله أو من عامة المسلمين.

وكانت تلك الأجوبة المفاجئة المسكتة تضحك النبى ﷺ ويضحك منها كثيراً.

ومن أمثلة ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه

قال: أتى رجل إلى النبى ﷺ فقال: هلكتُ!!

فقال النبى ﷺ : وما أهلكك؟!

قال الرجل: وقعت - أى جامعت - أهلى فى نهار رمضان.

فقال النبى ﷺ : أعتق رقبة.

قال الرجل: ليس لى.

فقال النبى ﷺ : فصم شهرين متتابعين.

قال الرجل: لا أستطيع.

فقال النبى ﷺ : فأطعم ستين مسكيناً.

قال الرجل: لا أجد.

فأمر النبى ﷺ بعرق (كيل تمر)، فلما أتوا بالعرق قال ﷺ : أين السائل؟!

فلما أتى الرجل قال له النبى ﷺ : تصدق به.

فقال الرجل: على أفقر منى ؟!! والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر!!

فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال للرجل: فأنتم إذن .. وفى رواية اذهب وتصدق به على أهلك.

٥- **التهكم والسخرية والاستهزاء من قبح الخلقة أو سوء الخلق:** وهذا أسلوب لم يرد من قريب أو بعيد إن كان قبح الخلقة، أو كانت العيوب الخَلقية

سبباً داعياً لكى يضحك النبى ﷺ منه أو عليه حتى إن سوء الخلق وتردى الأخلاق عند بعض الناس لم تكن وسيلة أو أسلوباً يضحك منه النبى ﷺ أو يضحك له.

ومن المعلوم من الدين بالضرورة، أن التهكم على الناس أو السخرية منهم أو الاستهزاء بهم أمر يحرمه الإسلام ويجرمه، ويعتبر إن ارتكاب تلك الأفعال من صفات الجاهلية التى لم ترع للإنسان- مهما كان لونه أو جنسه أو مسلكه-كرامته التى كرمه الله تعالى بها، وقد نص القرآن الكريم على النهى عن الإتيان بتلك الأمور المحرمة، والتى جمعت جميعها فى معنى السخرية، حيث قال الحق تبارك وتعالى فى سورة الحجرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
(الحجرات: ١١)

٦- **الحيلة والحيل:** من أساليب الضحك والإضحاك وقد اشتهر هذا الأسلوب بين العرب قديماً، واشتهر به رجل من أصحاب النبى عليه الصلاة كان يسمى نعيمان.

ولنعيمان كثير من الحيل التى كان يفعلها وكان يضحك منها النبى ﷺ، وكان لنعيمان مزاحات كثيرة سنذكر بعضها فيما بعد، ومن تلك الحيل التى كان يفعلها نعيمان أنه أوقف رجلاً يبيع جرات من العسل أمام بيت النبى ﷺ وأخذ جرة عسل ودخل بها على النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله هذه هدية أهديت إليك.

ثم خرج نعيمان وقال للبائع انتظر قليلاً، فإن صاحب الدار سيخرج لك ثمن الجرة.

وانتظر البائع كثيراً ولم يخرج أحد من الدار، فصاح وهو يدق الباب ويقول: يا أهل الدار ألا أُعطى ثمن عسلى.

فلما سمع النبى عليه الصلاة والسلام ما قاله الأعرابى على الباب..قال: إحدى هنات نعيمان.

ثم أرسل النبى ﷺ فى طلب نعيمان، فلما حضر قال له النبى ﷺ : يانعيمان ما حملك على ما صنعت؟

فقال نعيمان: أردت برك يا رسول الله ولم يكن معى شىء.

فضحك النبى ﷺ وأعطى للبائع حقه.

هذه هى أشهر بعض أساليب الضحك والإضحاك، وجدنا بعضها يدخل فى الأساليب التى دفعت النبى ﷺ إلى الضحك، وبعضها لم تكن سبباً للضحك والإضحاك، بل حرمها وجرمها الإسلام.

فالتهكم والسخرية والاستهزاء والاستعلاء والتحامق والإمعان فى الجهل، والتظاهر بالغباء، وقلب الحقائق، كل هذه الوسائل والأساليب المنتشرة بين الناس، لم يكن لها محل عند النبى ﷺ وصحابته.

فكل ما يتعلق بالباطل أو الكذب أو الحرام وأى فعل يتنافى مع القيم والمبادئ الإسلامية لم يكن سبباً أو أسلوباً لكى يضحك منه أو عليه النبى ﷺ، وقد كان ﷺ يبتسم ويضحك ويمازح، ولكن بالحق، ولقد قال عليه الصلاة والسلام:

إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق- (رواه الترمذى والبخارى)

ثانياً: وظائف الضحك

إذا كان للضحك أسبابه ودواعيه وبواعثه، فإن من جادة القول أن نقول إن الضحك يؤدى عدداً من الوظائف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المهمة، وقد ذكر العلماء هذه الوظائف، نذكر منها أهمها التى حددها علماء النفس والاجتماع وذكرها صاحب كتاب السخرية فى القرآن الكريم ومنها مايلى:

أولاً: تخفيف الآلام النفسية

يعتبر مجرد محاولة تخفيف الألم أمراً بالغ الأهمية، خاصة محاولة تخفيف الآلام النفسية من خلال الترويح عن النفس وظيفة غاية فى الأهمية، وهذا ما قرره علماء النفس والاجتماع.

حيث يرون أن الدافع الأساسى للضحك بصفة عامة، إنما هو محاولة تخفيف الآلام التى يتعرض لها الإنسان فى حياته اليومية المليئة غالباً بالمنغصات والمكدرات.

وليس من قبيل المبالغة أن نشير إلى أن النبى ﷺ كثيراً ما كان يداعب ويمازح زوجاته وأهل بيته، عندما تلم بهم أو تكون هناك حادثة ما قد تؤدى إلى ما يكدر الحياة وينغصها، وحتى يخفف من ألم الواقع من هذه الحادثة يلجأ النبى ﷺ إلى المداعبة والمزاح مع من حوله.

وقد كان ﷺ يذهب خلف على بن أبى طالب عندما كان يغضب من السيدة فاطمة ويحاول أن يسترضيه ويداعبه ويقول له:

«ما بك يا أبا تراب»؟؛ (أخرجه البخارى)

وكان كثيراً ما يحدث بين النبى ﷺ وزوجاته مشادات كلامية واختلاف ما، فكان ﷺ يمازح تلك الزوجة حتى يخفف الألم النفسى الناتج من تلك المشادة، كما حدث ذات مرة أن ارتفع صوت عائشة رضى الله عنها على رسول الله ﷺ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه، وعندما سمع صوت ابنته يعلو على صوت رسول الله هم أن يلطمها فحال بينه وبين ذلك الرسول ﷺ ومنعه من أن يضرب السيدة عائشة.

ولما خرج أبو بكر رضي الله عنه، قال الرسول ﷺ مداعباً ومازحاً مع السيدة عائشة قائلاً:

«كيف رأيتنى أنقذتك من الرجل»؟؛ (أخرجه أبو داود).

فمنذ قديم الزمن والإنسان يلجأ إلى الضحك لتخفيف آلامه النفسية حتى

وإن قالوا إن ذلك من باب التعويض النفسى فى مناشدة المفقود وطلب الضالة عنه، وكما يقول نيتشه: إننى لا أعرف تماماً لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يضحك، فإنه لما كان الإنسان هو أعمق الموجودات ألماً، فقد كان لابد له أن يخترع الضحك.

وإذا كان الإنسان هو أكثر المخلوقات تعاسة وشقاء، فهو بطبيعة الحال أكثرها بشاشة وانشراحاً.

فالضحك يؤدى إلى تخفيف الآلام النفسية، لأنه يصدر غالباً عن التناقض فى الطبيعة البشرية التى سرعان ما تمل الثبات على حال واحدة، فتمل الجد والصرامة، فتتلمس فى التنفيس عن معاناتها والتخفيف من آلامها.

ثانياً: تخفيف أعباء الواقع

أيضاً يؤدى الضحك وظيفة مهمة للغاية، فإلى جانب أنه يساعد على تخفيف آلام النفس، فإنه يساعد على مواجهة أعباء الواقع لتخفيف وقعها وألمها.

فبالضحك وحده يسعى الإنسان إلى تخفيف كثير من أعباء الحياة الواقعية التى كثيراً ما تثقل كاهل الإنسان، وفى ذلك أيضاً تخفيف الألم النفسى والعصبى الذى قد تسببه جدية الحياة وصرامة المجتمع.

وقد ثبت أن الجد الدائم والصرامة المتواصلة يؤديان قطعاً إلى الشعور بالملل مهما كانت قوة النفس، ولذلك نجد النبى ﷺ يقول فى توجيه تربوى بالغ القيمة والسمو:

«روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت».

(أخرجه الديلمى)

كما أن حياة الجد والصرامة بدون ترويح عن النفوس تؤدى إلى حالة من الكآبة قد تلازم صاحب هذه الحياة الصارمة الجادة، وتجعله كارهاً للحياة ذاتها، مكروهاً بين الناس، ممقوتاً بينهم، لأنهم دائماً ما يحتاجون إلى من يخفف عنهم حتى ولو بالابتسامة، لا من يثقل كاهلهم بتقطيب الوجه، وهذا ما حث عليه النبى ﷺ، وأمر المسلمين بطلاقة الوجه والتبسم، وعد التبسم فى وجه الغير صدقة يثاب عليها صاحبها من الله تعالى: وكان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس بشراً وكان بساماً.

فالتبسم فى وجه الناس يخفف عنهم آلامهم، ويزيح عن كواهلهم أثقال الحياة لأنهم فى أمس الحاجة إلى من يخفف عنهم أعباء الواقع، ويخلصهم ولو لدقائق معدودة، أو للحظات قصيرة ليسعدوا ويضحكوا، وهذا ما كان يرمى إليه **فولتير** عندما قال: لولم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم، فويل للفلاسفة الذين لا يبسطون بالضحك تجاعيدهم، لأن العبوس فى نظرى داء عضال.

فالضحك واحد من العوامل المهمة إن لم يكن هو الأهم، الذى من خلاله يتم

تخفيف أعباء جدية الواقع، ودائماً ما نبحث عما يضحكنا حتى فى أشد أحوال الحياة جدية وصرامة، فما بالنا إذا لم نتخذ من المواقف الداعية للضحك مادة نضحك بها، ومنها، فإن هذه المواقف تتحول إلى داع وباعث للإحساس بالألم والشعور بالتعاسة، كما يقول **مكدوجال**: إن الشىء المضحك ليس بالموضوع السار، وإنما هو الموضوع الذى إذا لم نستجب له بالضحك يسبب لنا الألم والضيق.

وقد ثبت أن النبى ﷺ ضحك فى أكثر المواقف جدية وصرامة، فعندما أراد الصحابة رضوان الله عليهم فتح الطائف (كما جاء فى البخارى) ووجد النبى ﷺ أن هذا الفتح لم يحن وقته بعد، فطلب منهم أن يرجعوا إلى المدينة، ويؤجلوا فتح الطائف إلى ما بعد، فرفض الصحابة خشية أن ينتشر ذلك فى أرض العرب وأصروا على دخول الحرب.

ووافقهم النبى ﷺ على رأيهم، وعندما دخلوا الحرب وقعت بينهم إصابات كثيرة، لكن الطائف لم تفتح أمامهم، فأشار عليهم النبى ﷺ بالعودة فقبلوها، فضحك النبى ﷺ لأنهم لم يقبلوا العودة إلى المدينة إلا بعدما وقعت كل هذه الإصابات بينهم، فإذا لم يواجه النبى ﷺ هذا الموقف بالضحك لتحول الحدث إلى ذكرى مرفوضة فى تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم.

فلا حرج أننا نجد أنفسنا أحياناً نضحك من أمور وقضايا شديدة الحساسية والجدية وبالغة الأهمية والصرامة وكأننا نهرب من مواجهتها خوفاً من أثقالها أو لتخفيف حدتها وواقعها المؤلم مثلما يضحك المأخوذ من قبل الشرطة متهماً بما لو ثبت عليه لأودى به إلى السجن أو أودى بحياته، فإذا لم يضحك فإنه غالباً ما ينهار أو يغلبه العبوس، وتسيطر عليه الكآبة، فيشل تفكيره، فلا يصل إلى ما يثبت به براءته، أو ما يؤكد قدرته على تحمل هذه الشدة، لأنه بدون الضحك لن يجد آنذاك ما يخفف عنه أعباء الواقع وألمه.

ثالثاً: النقد والإصلاح الاجتماعى

أيضاً من الوظائف المهمة والأساسية لنزعة الضحك عند الإنسان، هو النقد والإصلاح، فعندما نضحك من العيوب الاجتماعية أو النقائص الأخلاقية، أو المفاسد الإنسانية التى تصدر عن أناس خارجين على المجتمع ويسيئون إليه بغية النقد الذاتى والإصلاح الاجتماعى، يكون الضحك قد أدى وظيفة مهمة للغاية.

فإذا كانت العيوب والنقائص الاجتماعية لم تجد من يواجهها بكل السبل ومنها الضحك، فإنها ستنتشر انتشار النار فى الهشيم حتى تأكل جوانب وجنبات المجتمع.

ولابد من السخرية من تلك النقائض، وازدراء هذه العيوب بسلاح الضحك كواحد من أهم الأسلحة التى نحارب بها انتشار هذه العيوب باعتبار الضحك من أنجح الوسائل فى علاج أمراض اجتماعية خطيرة دون أن يؤدى ذلك إلى المساءلة القانونية.

فلو وجدت فئة منحرفة عن السلوك الجماعى للمجتمع، فإن هذا الانحراف لو استمر قائماً، فإنه سيؤدى إلى انهيار الكيان الاجتماعى للجماعة، ولابد لهذه الجماعة من التصدى لسلوك تلك الفئة المنحرفة، ولا حرج ولا مانع من التصدى لهذه الفئة من خلال السخرية منها والضحك عليها، ونقدها نقداً لاذعاً حتى تفيئ إلى رشدها، وتثوب إلى عقلها، وتصلح من سلوكها المنحرف وتقوِّم تصرفاتها السيئة.

فالضحك يعد سيفاً مصلتاً على رقاب الخارجين على المعايير الاجتماعية، وآداب الجماعة من خلال توجيه القول الساخر والنقد اللاذع، المضحك من هذه الفئة الخارجة ليكون الضحك نوعاً من الإصلاح، فتحقير عادات الخارجين وسلوكياتهم من أقوى الأسلحة فى زلزلة كيانها وإثارة الفتور فيها، حتى لا يقلدهم الغير، وحتى يثأر الناس من خلال الضحك من الخارجين على عاداتهم وتقاليدهم.

كما أن الضحك يكون مهما للغاية لنقد السلوكيات والعادات السيئة، فعندما نضحك من إهمال المهمل، ونقدمه بشكل هزلى ساخر، فإن الإهمال سيتقلص فى المجتمع، وكذلك عندما نضحك من غرور المغرور، وبخل البخيل، وتكبر المتعجرف، وبلاهة الجاهل، فإن ذلك يؤدى إلى تقلص هذه العادات السيئة.

ويرى علماء النفس والاجتماع، أن السخرية من أصحاب هذه الصفات السيئة من خلال الضحك عليهم ومنهم، فإنه يعد من أقوى الأسلحة لإحداث التغيير الاجتماعى، وزعزعة بعض العادات والتقاليد والسلوكيات غير المرغوب فيها، على اعتبار أن الضحك قد يكون أداة سهلة وميسرة لتحقيق النقد والإصلاح الاجتماعى.

رابعاً: التجاوب بين أفراد المجتمع

يؤدى الضحك إلى إيجاد نوع من العلاقات الجيدة والمتينة بين أفراد المجتمع، لأن من شأن الضحك أن يثير جواً من الفكاهة والظرف والنكتة التى تحدث تجاذباً بين النفوس، وتقاربا بين العواطف، وتآلفاً بين القلوب، بما يؤدى إلى تحسين العلاقة وتقويتها بين أفراد المجتمع الواحد بسبب تجاوب الجميع لدواعى وبراعة الضحك.

ويقول علماء النفس: لو أننا أمعنا النظر فى الدلالة الاجتماعية للضحك لوجدنا أن من شأن الضحك - باعتباره تعبيراً عن الانفعال - أن يجتذب إلينا انتباه أشباهنا من الناس، وأن ينتزع لنا منهم الاستجابة الصحيحة الملائمة.

فالناس يتجاوبون مع الضحك والأعمال المضحكة، أو صاحب الفكاهة أو النادرة، أو النكتة المضحكة، وينشدون إليه ويفضلون الجلوس معه والاستماع إليه دوماً، لأنه بضحكه ومضحكاته صار مطلوباً ليخفف عنهم الآلام النفسية، ويخفف من حدة أعباء الحياة وأثقال الجد والصرامة، وقد لا يجدون وسيلة للتخفيف عن أنفسهم إلا بالجلوس إلى الأشخاص الضاحكين المضحكين، وهذا يؤدى إلى تجاوب اجتماعى بين أفراد المجتمع ولعلنا لا نجد غرابة فى أن يهتم النبى ﷺ بأمر سويداء التى كانت تضحك السيدة/ عائشة رضى الله عنهما وتمازحها والنبى عليه الصلاة والسلام يضحك من ذلك.

وعندما تغيبت يسأل عنها الرسول عليه الصلاة والسلام، ويعرف أنها مريضة فيزورها، وعندما تموت يشهد جنازتها ويصلى عليها، ويقف أمام قبرها داعياً لها ربه قائلاً: اللهم إنها كانت تضحكنا فى الدنيا فاضحكها فرحا.

خامساً: تقوية الروح الجماعية

أيضاً من وظائف الضحك، أنه يساعد على تقوية روح الجماعة من خلال العمل على زيادة التعاطف الجماعى بين أفراد الجماعة الواحدة، أو المجتمع الواحد، بل ويحافظ على كيان وهوية هذه الجماعة.

فالضحك كما يقول علماء الاجتماع، يقوم بوظيفة المصلح الاجتماعى، لأنه يعمل على صيانة الاستقرار الفكرى للجماعة، والاتحاد العاطفى فى المجتمع الواحد ضد شتى عوامل التنافر أو المفارقة أو الاتباع والاغتراب.

والضحك لا يؤدى إلى تقوية روح الجماعة فحسب، بل أيضاً يعمل على الحفاظ على استقرار هذه الجماعة بالحفاظ على بقاء كيانه الفكرى متماسكاً وتقوية الاتحاد التعاطفى.

وتقوية الضحك للروح الجماعية غالباً ما يكون عندما يكون الضحك من خصم مشترك للجماعة أو المجتمع، فيكون الضحك ناتجاً عن السخرية من هذا الخصم أو الازدراء منه أو إظهار عيوبه وضعفه وضعته، من خلال السخرية والاستهزاء به.

وقد يؤدى الضحك إلى تقوية الروح الجماعية من خلال الضحك سروراً من القيم المشتركة والمبادئ الموروثة فى تلك الجماعة بمدحها ونقد الخارجين عليها أو المخالفين لها، والتفنن فى إظهار محاسن تلك القيم والعادات والتقاليد التى تتبعها الجماعة أو المجتمع، وإبراز تلك العادات على أنها دستور تلك الجماعة وقانونها والتغنى بمجدها أمام انهيار غيرها من التقاليد، وضياع غيرها من القيم.

ويلاحظ الباحثون أن للضحك أثراً فعالاً فى المحافظة على كيان الجماعة ووحدتها، وذلك من خلال حفظ مقومات ومعايير هذه الجماعة وآدابها، وذلك باستخدام الضحك كنوع من أنواع السخرية والاستهزاء، وازدراء الخارجين على آداب وتقاليد هذه الجماعة أو المارقين منها، وكذلك خصومها وذلك من جانبين:

الأول: أن أية جماعة مًا تحب ما تنتمى إليه من معايير وآداب وأخلاقيات،

فإذا ما رأت أن هناك فئة خرجت على هذه الآداب والأسس والأخلاقيات توحدت الجماعة صفاً واحداً ضد هذه الفئة الخارجة، فإذا ما وجه ازدراء أو سخرية من تلك الفئة الخارجة توحدت الجماعة فى الضحك، مما يعد ذلك حفاظاً منها على كيانها هى وقيمها وآدابها.

ثانياً: إن بعض أفراد هذه الجماعة، إذا ما رأوا من يسخر من المخالفين لأفكارهم، وازدراء خصومهم، فإنها تتوحد وتقوى روح الوحدة مع هؤلاء الساخرين، ويجدون الضحك قبل أن يكون سلاحاً ماضياً للرد على المخالفين كان أيضاً دعامة قوية جداً لتقوية أواصر العلاقات بين أفراد تلك الجماعة.

ولذلك يقرر علماء النفس والاجتماع، أنه ليس أدل على كون الضحك أداة صنعها المجتمع لتأديب الخارجين عليه، من أن الجماعة تقف بالمرصاد لكل من يستهين بتقاليدها أو يستخف بمعاييرها، فما أن تلمح سلوكاً غريباً حتى تصب على رأسه النكات صباً.

ويمكننا القول أنه عندما تضحك جماعة من غيرها المغايرة لها، كأنها تحافظ بذلك على كيانها الاجتماعى وترابطها من خلال الضحك، مما يؤدى بالتالى إلى تقوية الروح الجماعية لدى المجتمع.

سادساً: سلاح الحرب النفيسة

وظيفة مهمة أخرى للضحك حيث يرى الباحثون أن للضحك أثرا فعالا وبارزا فى مجال المساجلة والمنازلة فى الميدان الحربى وعلى ساحة المعارك والحروب سواء كانت حروباً نفسية أو حروباً عسكرية.

وهذا أمر حيوى ومنطقى للغاية، حيث تعتمد الحروب مع الخصوم على الروح المعنوية للمتحاربين، وغالباً ما يكون النصر حليفاً لمن يمتلك قوة الإيمان وارتفاع روحه المعنوية.

ولعل ارتفاع الروح المعنوية يعبر عن الثقة بالنفس والاعتزاز بها، وغالباً ما ينتج هذا عند الإحساس بضعف قوة العدو وقدرته، ولم يوجد الإحساس بضعف الأعداء إلا الاستهزاء بهم والسخرية منهم والضحك عليهم.

كما أن السخرية والضحك من الأعداء يهز ثقتهم فى أنفسهم ويزعزع تمكنهم من قوتهم، ويهز من قدرتهم على استخدام هذه القوة، ويضعف الروح المعنوية لديهم، حتى ينتشر بينهم الشك والريبة فى كسب الحرب.

وأكد علماء النفس - كما قالوا فى سيكولوجية الفكاهة والضحك. على مدى العلاقة الوثيقة بين الحروب والفكاهة والضحك، واعتبروا أن الضحك مظهر من مظاهر العدوان، وأنه يمد أهله بالوسائل الفنية البارعة فى محاربة العدو.

وما يؤكد أهمية الضحك من العدو والاستهزاء به ورفع الروح المعنوية عند المحاربين اهتمام جميع الجماعات والأجناس واعترافهم بأهمية ذلك بتخصيص فرع من أفرع القوات المسلحة يعرف بسلاح الشئون المعنوية، ومن هنا تظهر أهمية الضحك من العدو بالنسبة للحروب النفسية والمعارك العسكرية فى أنه يؤدى عدة أدوار مهمة فى هذا المجال من عدة وجوه أهمها:

أولاً: أن تقوية الروح المعنوية لدى المحارب، خاصة عندما يكون ذلك بالضحك والسخرية من الخصم، فإن ذلك يزيد الثقة بنفسه، ويرفع لديه درجة

الاعتزاز بالذات والاستعداد لإثبات ذلك عمليّاً عندما يلتقى وعدوه فى ساحة القتال، خاصة وأن الضحك ينبع من الشعور بالتفوق والانتصار على الغير.

ثانيـاً: أن الضـحك وإن كـان يؤدى إلى رفع الروح المعنوية لدى المحـاربين الضـاحكين، فـإنه فى ذات الوقت يؤدى إلى إضـعـاف الروح المعنوية عند الأعداء والخصـوم، ويهـز كيانهم، ويزلزل ثقـتهم بأنفسهم، مما يؤدى إلى وقوعهم فى مستنقع الخوف والرعب.

ثالثاً: أن المحارب أكثر الناس معاناة من أعباء وضغوط واقع الحياة خلال الحرب من جراء الصرامة، والحزم التى تفرضهما ظروف المعارك والحروب نفسية كانت أو عسكرية، وهو فى هذا الأمر أيضاً، أكثر الناس احتياجاً إلى من يخفف عنه بعضا من تلك الأعباء ويزيح عن كاهله ولو جزءا من هذه المعاناة.

ومن هنا تأتى أهمـيـة إضـحـاك هـذا المحـارب، بل وحـشـد المتخـصـصـين وأصحاب الخبرة فى جميع علوم النفس والاجتماع والفن والكوميديا للترويح عن هذا المقـاتل، والتخـفـيف عن كـاهله من خـلال الفكاهة والضـحك، مما يؤدى إلى إعادة الثقة فى نفسه أولاً، وارتفاع روحه المعنوية ثانيـاً، واعتزازه بذاته وقدراته ثالثاً.

رابعـا: إن الضـحك يحدث نوعـا من أنواع التوازن لدى الإنسـان ويؤدى إلى تخفيف آلامة النفسية عندما يشعر بالقهر أوالهزيمة أمام الآخرين ·

والمحارب قد يلاحقه الشعور بالمأساة عندما يسمع عن تفوق العدو، أوقدرته العسكرية، وقد يشعر بالحزن لفراقه لاهله وأولاده وأحبابه، وأمام الإحساس بالحزن والمأساة لابد أن يحدث نوع من التوازن النفسى لدى المحارب ولن يتأتى ذلك إلا من خلال الضحك الذى يؤدى إلى إبعاد شبح المأساة والحزن عن إحساس وشعور المحارب·

خـامـسـا: قد يؤدى الضحك أيضا الى إيجاد نوع من أنواع التعويض أو التبرير لمواقف الضعف وحالة الإحساس بالخوف من العدو، أو عندما يدرك

المحارب أن إمكاناته العسكرية لا تساوى شيئا إلى قدرات وإمكانات الخصم، فلا يكون هناك سلاح لمواجهة هذه المواقف الشاقة والشائكة إلاباشاعة روح المرح والفكاهة بين المقاتلين، حتى لايتمكن منهم اليأس والرعب والخوف فيقتلهم قبل أن يُقتلوا بسلاح العدو، فالضحك حينئذ يكون هوالثأر السلمى لجماعة الضعفاء.

فالضعيف الذى يعرف حقا قدر ضعفه تجاه تفوق خصمه لا يجد وسيلة فعالة للتغلب على هذا الضعف، وربما زعزعة خصمه القوى إلاعن طريق نشر النكات الساخرة من الخصم، أوالطرافة المستهزئة بالعد، أو الفكاهة المستهينة بقوة هذا العدو لأن الاستسلام للخصم فى هذه الحالة، يعنى الفناء التام، كما أن اليأس إذا ما سيطر على روح المقاتل أدى به غالبا إلى الانتحار، أو إلى الإصابة بالعديد من الأمراض النفسية التى قد يكون الشفاء منها صعباً للغاية إن لم يكن مستحيلاً.

فالضحك واحد من أهم الأسلحة الحربية التى تؤدى إلى رفع الروح المعنوية لدى المقاتل، وضعفها لدى العدو، وإيجاد نوع من أنواع التوازن بين المعاناة والملهاة، ومحاولة جديرة بالأخذ لتفادى اليأس والانتحار، أو الإصابة بالأمراض النفسية الخطيرة.

فيكون الضحك آنذاك هو السلاح الوحيد فى مواجهة العدو والخصم فى الميادين والساحات الحربية والعسكرية سواء عند الأقوياء أو جماعة المستضعفين.

المبحث الثالث

الضحك فى القرآن الكريم

الضحك فى القرآن الكريم

أولاً: قصص الضحك فى القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله، وكتابه المعجز، المنزل على نبيه محمد ﷺ المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته، والملزم بأحكامه، والمعتبر بما فيه من قصص.

فالقرآن الكريم نزل للتعبد به والالتزام بما فيه من أحكام وشرائع، والاعتبار بما احتواه من قصص وعظات وكل ما فيه جد لا هزل، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد وردت مادة كلمة (ضحك) فى كتاب الله تعالى أكثر من مرة، وجاءت فى أكثر من موقف، وذكرت فى أكثر من قصة، معبرة تعبيراً واضحاً عن ماهية الضحك، ومبينة لنوعه، وحلاله وحرامه، وما هو مقبول منه وما هو مرفوض ومذموم، وكذلك كاشفة لأسلوبه وكيفية الاستفادة الصحية من مادة الضحك.

وكشف القرآن الكريم تصريحاً أو تلميحاً عن الممدوح من الضحك والمذموم. وبين أصحاب كل حالة على حدة، سواء كانوا ضاحكين أو مضحوك منهم.

هذا بخلاف ما تضمنه القرآن الكريم من أساليب ساخرة بالخارجين عليه والمارقين عن منهج الله تعالى، وهذه الأساليب فيها من الاستهزاء والازدراء والتحقير للمخالفين لمنهج الله تعالى وشرعه، ما يدعو إلى الضحك من تلك الصور التشبيهية البالغة الدقة فى التصوير والتعبير.

ونستعرض خلال هذا الفصل، بعضاً لتلك القصص والمواقف والتشبيهات المضحكة والساخرة التى جاءت فى أصدق كتاب.

ما أضحك سارة؟!

من تلك المواقف التى أشار الله تعالى فيها إلى مادة الضحك ما جاء فى قصة رسل الله تعالى مع نبيه إبراهيم عليه السلام عندما أتوا إليه فقالوا كلاماً ضحكت منه السيدة سارة زوجة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، حيث يقول الحق تبارك وتعالى:
﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾

(هود: ٦٩:٧٣)

فسارة زوجة إبراهيم عليه السلام هى التى ضحكت، وقيل إن اسمها «سارة» مستمد من السرور والبشر والفكاهة ووضاءة الوجه.

وكانت سارة رضى الله عنها حاضرة الموقف من أوله عندما جاء الملائكة - رسل الله - على هيئة بشر عاديين حتى نهاية الموقف.

فإبراهيم عليه السلام وزوجته سارة رضى الله عنها كانا معا عندما جاء إليهما ثلاثة رجال لا يعرفان هويتهم، ولا من أين أتوا؟ ولا ما هى غايتهم، وبعد تبادل التحية وإلقاء السلام منهم والرد عليهم من إبراهيم عليه السلام، قام ليؤدى فرائض واجب الضيافة إلى زواره، فأسرع وأتى بعجل «حنيذ» سمين، فذبحه من فوره وسلخه وشواه وقدمه إلى ضيوفه.

لكن الضيوف خذلوا إبراهيم عليه السلام، وأوقعوا فى قلبه الخوف والفزع عندما وجدهم لم يمد واحد منهم يده إلى هذه المأدبة، فلما رأى أيديهم لا تصل إلى عجله نكرهم، فإذا كان من حق الضيف إكرامه، فإن الواجب عليه أيضاً أن يأكل طعام المضيف.

ولأنهم خالفوا العادة، وشذوا عن المتبع، أوجس منهم خيفة فى أن يكون سبب امتناعهم عن تناول شىء من الطعام، أنهم يريدون به ضرراً أو أذى، أو أنهم أضمروا به أو بأهل بيته شرا.

كل هذا وزوجته سارة - رضى الله عنها - قائمة شاهدة على ما يحدث، وما يدور بين الضيوف وبين زوجها، ولعلها أيضاً شعرت بما شعر به إبراهيم ﷺ وأوجست فى نفسها خيفة من هؤلاء الضيوف المخالفين لنواميس وعادات الضيافة.

وعندما أراد الضيوف الكشف عن هويتهم ووجهتهم لكى يزيلوا الخوف عن قلب إبراهيم ﷺ ضحكت زوجته عندما قال الضيوف لزوجها:

« لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت».

هناك فقط عبرت سارة عما يختلج فى نفسها، وما يدور فى صدرها، بالضحك عندما سمعت ما قاله الضيوف الذين كشفوا لإبراهيم ﷺ وزوجته أنهم ليسوا من البشر، وأنهم من الملائكة، وأنهم ذاهبون إلى لوط ﷺ، هنا فقط لم تجد سارة - رضى الله عنها - ما تعبر به عن أشياء كثيرة تدور حولها إلا أنها «ضحكت».

وبالتأكيد فإن الموقف يتخلله الكثير من المتناقضات والملابسات الداعية إلى أن تعبر عنها سارة بالضحك دون غيره من وسائل التعبير عن مثل هذه المواقف.

والمتأمل للآيات القرآنية الكريمة التى سردت علينا هذه القصة، يجد أن هذه الآيات الكريمة تضمنت وأشارت إلى أكثر من سبب يستدعى من السيدة سارة رضى الله عنها أن تعبر معه وعنه بالضحك.

ولعل سارة رضى الله عنها عبرت عما تختزنه من معارف ومعلومات عن تلك الموقف المتضاربة، والمتشابكة التى أوردتها القصة، وما بين تلك المعلومات المخزونة لدى السيدة سارة رضى الله عنها، وتلك المواقف التى تشير إليها القصة من تناقضات داعية إلى التعجب والضحك.

وإذا لم يكن هناك داع للضحك، فلماذا ضحكت سارة؟ وهل ضحكها كان بلا

سبب؟ وإن كانت هناك ثمة أسباب داعية إلى هذا الضحك فما هى؟ وما أضحك سارة؟.

ذكر العلماء ومفسرو القرآن الكريم عدة أسباب يقوى بعضها البعض كانت باعثة على أن يصدر الضحك من السيدة سارة أمام هؤلاء الضيوف.

ولنبدأ بما ذكره الإمام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، حيث أورد رحمه الله تعالى اختلاف المفسرين والعلماء حول تلك الأسباب التى دعت سارة رضى الله عنها إلى الضحك فى هذه القصة التى جاء ذكرها فى كتاب الله تعالى منها:

أولاً: نقل الرازى عن القاضى عبد الجبار قوله: إن ذلك السبب الذى دعا بالسيدة سارة رضى الله عنها إلى الضحك، لابد وأن سببا جرى ذكره فى هذه الآية، وما ذاك إلا أن سارة فرحت بزوال ذلك الخوف عن إبراهيم عليه السلام، حيث قالت الملائكة: «لا تخف» فعظم سرورها بسبب سرور إبراهيم عليه السلام بزوال خوفه، وفى مثل هذه الحالة يضحك الإنسان مسروراً.

فكأن سارة عندما ضحكت من البشارة بزوال الخوف عن إبراهيم عليه السلام عندما قالت الملائكة: «لا تخف» فقيل لها نجعل هذه البشارة بشارتين، فلما حصلت البشارة بزوال الخوف عن إبراهيم عليه السلام، فقد حصلت البشارة الثانية بحصول الولد الذى كنتما تطلبانه من أول العمر إلى هذا الوقت.

فيكون ضحك سارة سروراً وفرحاً ببشرى زوال الخوف وبشرى حصول الولد.

ثانياً: يحتمل أن سارة كانت عظيمة الإنكار على قوم لوط، لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث، المشهور فيهم، فلما أظهرت الملائكة أنهم جاءوا للقضاء على قوم لوط وإهلاكهم لحقها السرور فرحاً بهلاك أعداء الله وأعداء الإنسانية فضحكت.

ثالثاً: قال السدى: إن إبراهيم عليه السلام عندما وجدهم لا يأكلون قال لهم: «ألا تأكلون؟».

قالوا: لا نأكل طعاماً إلا بالثمن.

قال إبراهيم: ثمنه أن تذكروا الله تعالى على أوله وتحمدوه على آخره.

فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام: حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه الله تعالى خليلاً.

فضحكت امرأته سارة من هذا الكلام وفى ذلك تكلف حيث القصة بها الكثير من المتشابكات الباعثة على الضحك.

رابعاً: قالوا -أى المفسرون- إن سارة رضى الله عنها، قالت لزوجها إبراهيم ﷺ: ارسل إلى ابن أخيك «لوط» ﷺ وضمه إلى نفسك (يعيش معك) فإن الله تعالى لن يترك قومه حتى يعذبهم.

وما إن انتهت سارة من هذا الكلام الذى طلبت فيه من إبراهيم ﷺ أن يرسل فى طلب ابن أخيه حتى دخلت الملائكة عليهم السلام على إبراهيم ﷺ، فلما حدث بينهم ما كان وأخبروا إبراهيم ﷺ بأن الله تعالى أرسلهم لإهلاك قوم لوط، فصار قولهم موافقاً على مرادها، وما جاءت به الملائكة، وبين مشيئة الله تعالى التى اقتضت إهلاك هؤلاء المفسدين كما توقعت سارة وتمنت فضحكت سارة لهذا التوفيق سرورا.

خامساً: ذهب بعض المفسرين إلى سبب ضحك سارة رضى الله عنها كان بسبب أن الملائكة عندما جاءت إبراهيم ﷺ وأخبروه بأنهم من الملائكة وليسوا من البشر، رغم أنهم جاءوا على هيئة بشر، طلب منهم إبراهيم ﷺ أن يثبتوا ذلك ويؤكدوا أنهم من الملائكة، وليسوا من البشر بأن يأتوا بمعجزة دالة على ملائكيتهم.

فدعوا ربهم بأن يحيى العجل الحنيذ الذى كان إبراهيم ﷺ قد أتى به وذبحه وشواه لضيوفه هؤلاء، فطفر ذلك العجل المشوى من موضعه الذى كان فيه إلى مرعاه.

وكانت امرأة إبراهيم ﷺ قائمة شاهدة هذه المعجزة الباهرة، فضحكت رضى الله عنها لما رأت العجل المشوى قد طفر من موضعه إلى مرعاه، فضحكت

عجباً مما حدث للعجل.

وهذا الرأى أيضاً فيه تكلف حيث إن لا القرآن الكريم ولا السنة لنبوية المطهرة ذكرت أو جاء فيها إشارة إلى ما يدل على ذلك، وهناك من المتناقضات الواضحة والظاهرة فى القصة تدعو إلى الضحك.

سادسا: قال قتادة وذكره ابن كثير فى تفسيره: إن سارة رضى الله عنها إنما ضحكت تعجباً من أن قوماً أتاهم العذاب وهم عنه غافلون.

وعليه فإن سارة رضى الله عنها تخيلت ما عليه قوم لوط من الغفلة واللهو والعذاب قادم إليهم وسيحيق بهم وهم لا يشعرون، فضحكت تعجباً من أمرهم فى غفلتهم عن اتباع الحق.

سابعاً: قال الرازى: لا يبعد أنهم بشروها بحصول مطلق الولد، فضحكت على سبيل التعجب والاستكار، فكيف ستنجب وهى المسنة التى تجاوز عمرها التسعين عاما، وهى العاقر التى لا تنجب، كما أن زوجها إبراهيم عليه السلام تجاوز عمره المائة عام، فهى عاقر عجوز وبعلها شيخ كبير فكيف ستلد؟

فلما قالت لها الملائكة إنك ستلدين ضحكت، ثم إنها لما ضحكت بشروها بذلك الولد إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب ابنا لإسحاق.

ثامناً: قالوا: إنها ضحكت تعجبا من خوف إبراهيم عليه السلام، وما بدا عليه من علامات الخوف عندما رأى ثلاثة رجال لا يأكلون من طعام الضيافة فهم ثلاث حال كون إبراهيم عليه السلام بين أهله، وخدمه وحشمه وفى عقر داره، وما كان ينبغى له إظهارالخوف بهذا الشكل، وما كان له أن يبدى علامات الخوف أمام ثلاثة لا يعلم أحد أنهم من الملائكة.

فتناقض المواقف بين موقف إبراهيم عليه السلام بين أهله وحشمه وخدمه وفى عقر داره ومع ذلك يبدى الخوف من ثلاثة رجال، فكان ذلك داعياً للضحك - فضحكت سارة رضى الله عنها.

تاسعاً: ذكر ابن كثير فى تفسيره نقلاً عن قول محمد بن قيس: أن سارة

رضى الله عنها إنما ضحكت من سبب زيارة هؤلاء الضيوف إلى قوم لوط، لأنها ظنت أنهم يريدون أن يفعلوا الخبائث كما كان عليه قوم لوط قبحهم الله تعالى.

فيكون ضحك سارة رضى الله عنها ناتجاً عن تناقض واضح وبين فى موقف هؤلاء الضيوف وموقف جميع العقلاء من البشر، فهؤلاء الضيوف يقصدون قوم لوط، وكل العقلاء والحكماء يفرون من قوم لوط خوفاً مما يفعله آل لوط بضيوفهم.

وكان هؤلاء الضيوف يريدون الذهاب إلى قوم يفر منهم كل الناس، وهذا التناقض بين ما يقصده ضيوف إبراهيم عليه السلام، وما يفعله الناس كافة كان داعياً إلى أن تضحك سارة رضى الله عنها.

ويعلق العقاد على هذه القصة فى كتابه «جحا..الضاحك المضحك»..قائلاً: إن كل عوامل الضحك النفسية التى ظهرت للباحثين النفسانيين فى تفسيراتهم تعرضها هذه الآيات الكريمة على نسقها المتتابع فتأتى بالضحك، حيث يأتى الضحك مطردا فى مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس فيه أمل، ولا فى الحسبان من الولادة بعد سن اليأس، وخيبة الأمل فى الذرية زمناً طويلاً تعتلج فى النفس بأشتات من دواعى الحزن والعزاء والغيرة والتسليم.

وهذه المواقف والعوامل لا تغنى معها كلمة «سُرت» أو كلمة استبشرت، أو فرحت، مكان كلمة ضحكت فى السياق القرآنى، لأن الضحك هو الأثر الدائم والتعبير المناسب فى هذه الحالة التى تشابكت فأصبحت فى قرارة النفس حالات متضاربة وتناقضات تثير فى النفس الضحك.

النملة وسليمان

يقص علينا الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم قصة أخرى يخبرنا فيها خبر حشرة من أصغر الحشرات والكائنات الحية أضحكت نبياً كريماً من أنبياء الله تعالى، وملكاً من أقوى ملوك الأرض قاطبة، حيث أعطى ملكاً لم ينله أحد من بعده من أنبياء الله أو ملوك الأرض.

فالنبى هو سليمان بن داود عليهما السلام، والحشرة التى دفعته للتبسم والضحك كانت نملة من وادى النمل الواقع فى مملكة سليمان عليه السلام كما عبر عن ذلك القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٧ ،١٨، ١٩)

فالآيات القرآنية الكريمة تقص أن سليمان عليه السلام تحرك بجيشه الجرار بعد عملية التعبئة العسكرية بنية غزو بلد ما، وهو فى طريقه بجنده إلى ما يقصده اقترب من وادى النمل هو وكل من معه من الجند، فلما رأت نملة من النمل مقدم سليمان عليه السلام بجنده خشيت على نفسها وخافت على بنى جنسها من أن يهلكوا جميعاً تحت أقدام الجند فقالت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨)

فلما سمع سليمان عليه السلام قول النملة وكان الله تبارك وتعالى قد منّ عليه فعلمه منطق الطير والحشرات، وجميع الكائنات الحية، فلما سمع قول النملة تبسم ضاحكاً من حكمة هذه النملة ومنطقها.

فضحك سليمان عليه السلام كان سببه الشعور بالرضا والسرور بما آتاه الله تعالى إياه من نعمة العلم لمنطق تلك الكائنات الحية التى تشاركه الحياة فى بيئته، فلما سمع النملة تخاطب بنى جنسها تبسم لما قالت وانخرط فى الضحك مما أشارت.

كما أن ما أبدته النملة من منطق حكيم يدل دلالة قاطعة على حرصها الشديد، وخوفها الكبير على بنى جنسها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم حتى لا يتعرضوا للهلاك تحت وطأة أقدام سليمان ﷺ وجنده، وتفادياً لهم من أقدام النوع البشرى الذى لا يشعر فى الغالب بما هو أضعف منه، كل هذا يدفع قطعاً إلى الضحك.

فضحك سليمان عجباً من حرص هذه النملة على بنى جنسها، فأمرتهم بتفادى أقدام الجند والابتعاد عن طريقهم، مبينة لهم الخطر وكيفية تفاديه.

كما أن منطق النملة مع صغر حجمها، فيه ما يدل على حكمتها وفطنتها وإدراكها أن سليمان ﷺ مع ما يتمتع به من رحمة ولين من كونه نبيّاً، فهو لن يقصد تحطيم النمل، ولكن هذا الأمر يأتى رغماً عنه، حيث إنه هو وجنده لن يشعروا بأن تحت أقدامهم كائنات حية يجب تفاديها والابتعاد عن واديها.

وإذا ما حدث وتحطم النمل لصغر حجمه وضعف بنيانه فلا جرم على سليمان، ولا على جنده خاصة وأنه لن يكون هناك من يطالب للنمل بالحماية أو يعبر عنه أو حتى يشعر به.

وقد يكون الفرق الواضح والبون الشاسع بين حجم النملة الضئيل وما عليه سليمان ﷺ وجنده من قوة البنيان وضخامة الأجسام يجعل أى شخص يسمع قول النملة أو يتخيل موقفها، وهى تواجه هذه الأجسام الضخمة هى وبنى جنسها، فإنه لم ولن يجد مفراً من التعبير عن تلك الحالة إلا بالضحك.

وعليه فقد تجمعت فى هذه القصة القرآنية عدة عوامل ومجموعة من العناصر الفنية جداً بما يؤدى إلى الانفعال بالضحك، فالتناقض بين جسم النمل جميعاً وجسم واحد من جند سليمان، وكذلك الحال بين ملكة النمل، وسليمان ﷺ، وبين حكمة المنطق فى قول النملة وبين معرفة سليمان لتلك اللغة التى لا يعلمها إلا هو، والمفاجئة فى هذا المنطق الذى بلغ فى حكمته مبلغاً عظيماً.

فهذه نملة ضئيلة الحجم تواجه موقفاً صعباً، لكنها بكل حكمة تأمر بنى جنسها بما فيه نجاة لهم من الهلاك والدمار تحت أقدام الجند الذى لن يشعر بما يفعله فى النمل، وهذا ما دفع سليمان ﷺ إلى التبسم راضياً، والضحك مسروراً على هذا المنطق وعلى ما حباه الله تعالى إياه من فضل عظيم.

ضحك يناقض ضحكاً

فى نموذج آخر من النماذج التى سردها لنا القرآن الكريم، يصور لنا فى صورتين متناقضتين لفريقين، أحدهما كان الضحك منه فى غير محله، فكان ضحكاً مذموماً مرفوضاً، وفريق آخر كان ضحكه فى موضعه مقبولاً ومطلوباً.

فأصحاب الفريق الأول هم الخارجون عن منهج الله تعالى، المارقون من اتباع ما أمر الله به فسماهم المجرمين، أما الفريق الآخر، فهم الذين استجابوا لله وللرسول، فكانوا أهل الإيمان والتقوى.

وفيها يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

(المطففين: ٢٩، ٣٦)

هذه الآيات الكريمة تصور لنا موقفين متناقضين لفريقين متنافرين، كل منهما أخذ حظه من الضحك على الفريق الآخر لتضادالأيديولوجية والعقيدة والموقف بين الفريقين.

فأبطال الفريق الأول الذين نزلت فيهم هذه الآيات خاصة ومن على شاكلتهم عامة - يمثلهم فى ذلك أبو جهل، والوليد بن المغيرة، والعاصى بن وائل السهمى. ومن على شاكلتهم وعقيدتهم وموقفهم من الأموات أو الأحياء فى زمن سلف، أو حاضر أو آت.

أما أبطال الفريق الثانى، فهم كل المؤمنين الملتزمين بما أنزل الله والمتبعين لمنهجه وشريعته، يمثلهم فى ذلك من نزلت فيهم الآيات القرآنية الكريمة وهم: عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومى، وبلال بن رباح.

فأعضاء الفريق الأول من أهل الإجرام والكفر كانوا يضحكون سخرية من

أعضاء الفريق المؤمن واستهزاء بهم وبدينهم وبعبادتهم وشريعتهم ولم يكتف المجرمون بالضحك سخرية واستهزاء بالمؤمنين، بل كان المجرمون إذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم تقليلاً لقدرهم واحتقارا لشأنهم، ثم يتهمونهم بالضلال والغى.

كما أن المجرمين بعدما يضحكون سخرية بالمؤمنين ويتغامزون بهم استهزاء ويتهمونهم بالضلال ينقلبون إلى أهلهم يحملون فى كلامهم السخرية والاستهزاء من المؤمنين ويتندرون عليهم ويطلقون عليهم النكات الساخرة والألفاظ اللاذعة تعجباً بمافعلوه بالمؤمنين، وهذا ضحك مذموم، لأنه قائم على غير وعى، وأهله فقدوا الإدراك، ولم يتبينوا حقائق الأمور، فكانوا أغبياء فيما يفعلون.

ويصور لنا القرآن الكريم الحقيقة الدامغة، والنهاية الحتمية، وما ينتظر هؤلاء المجرمين الأغبياء من حساب شديد وعذاب أليم وموقف مهين على ما قدموه من أفعال، وما ارتكبوا من جرائم فى حق المؤمنين عندما سخروا منهم فى الدنيا، واستهزأوا بهم وبدينهم.

والنهاية الحتمية التى تنتظر المجرمين تدفع أهل الإيمان والتقوى إلى الضحك الحقيقى والأبدى يوم القيامة وهم جلوس على الأرائك ينظرون إلى ما عليه أهل الإجرام فى النار.

وقد ذكر المفسرون عدة أسباب دفعت كل فريق منهم إلى أن يضحك من الفريق الآخر، ومما ذكره المفسرون:

ما ذكره ابن كثير فى تفسيره، إلى أن الدافع لضحك المجرمين من المؤمنين فى الدنيا هو الاستهزاء بالمؤمنين والتحقير لهم، والاستخفاف بما لهم فيكون ضحك المؤمنين يوم القيامة من هؤلاء المجرمين مقابل ضحكهم عليهم فى الدنيا.

ويذكر الرازى فى المجلد السادس عشر من تفسيره: إن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين فى الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبأس، وفى الآخرة يضحك المؤمنون على المجرمين بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء.

فضحك المجرمين مقطوع، لأنه فى الدنيا وقائم على الغباء والبلاهة، لأنه لو كان لدى المجرم عقل ما عرض عن منهج ربه، وما وقعت منه سخرية من المؤمن مهما كان المؤمن ضعيفاً أو قليل الحيلة.

وهذا الضحك مذموم مرفوض لعدم جديته وجدواه ولقيامه على السخرية والاستهزاء، وهذا أحط وأسوأ أنواع الضحك، كما أنه ضحك المتخلفين البدائيين.

أما ضحك المؤمنين، فهو موصول غير مقطوع، أبدى غير زائل، كما أنه قائم على الرضا والسرور والاعتزاز والفخر بما حصله المؤمنون يوم القيامة من مقام كريم وجنات وعيون، وما نالوه من رضا الله سبحانه وتعالى عنهم.

فالمؤمنون وإن ضحكوا يوم القيامة من المجرمين، فهو ضحك المنتصر الراضى القانع بما فعل، ولذا نجد الله تعالى يكرم عباده أهل الجنة بالنظر إلى تعذيب أهل النار ليدركوا قدر ما هم فيه من نعيم مقيم، لما قدموا فى الدنيا ويروا مدى ما حاق بالمجرمين من عذاب.

من هذه الصور، ما نقله الإمام الفخر الرازى فى تفسيره عن أبى صالح قوله:

«يقال لأهل النار وهم فيها: اخرجوا!! وتفتح لهم أبواب النار - ليخرجوا منها -فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا عليها مسرعين - يريد كل منهم الخروج من النار».

فإذا انتهوا - وصلوا إلى أبوابها غلقت دونهم، والمؤمنون آنذاك يجلسون على الآرائك ينظرون - وهم يشاهدون تكرار هذا الموقف من أهل النار - فيضحكون منهم بما لحقهم من الهوان والصغار - المذلة - بعد العزة والكبر.

فالمؤمنون يوم القيامة سيضحكون من تصرف المجرمين والكفار وهم قابعون فى نار جهنم، وهم فى لهفة وولع، طلباً للخروج من النار فى أقرب وقت، وعندما تفتح أبواب النار يظن المجرمون والكفار أنهم منها خارجون وما هم بخارجين.

ولعل الصورة الفكاهية التى يرسمها حال المجرمين عندما تفتح أمامهم

أبواب النار فيظنون أن الأبواب ستظل مفتوحة، وأن بإمكانهم الخروج من النار، وما أن يروا أن أبواب النار قد فتحت حتى يهرعوا إليها متزاحمين عليها، فإذا ما وصلوها أغلقت دونهم وحرموا الخروج من النار.

فيكون الضحك للمؤمنين يوم القيامة أداة من أدوات النعيم الذى يقيم فيه المؤمنون فيزدادون تنعيماً وبهجة وسعادة، ويكون الضحك على الكافرين والمجرمين يوم القيامة بمثابة مزيد من الإهانة والامتهان لهم فيزدادوا بذلك ألماً وعذاباً، ويظل الحال على ما هو عليه من ضحك دائم موصول أبدى على أناس يعذبون فى نار جهنم عذاباً مقيماً موصولاً أبديا غير مقطوع، بخلاف ما كانوا عليه فى الدنيا من حياة مقطوعة غير موصولة، ضحكوا فيها ضحكاً مذموماً مخزياً جلب لهم العار والتعذيب فى نار جهنم.

أما ضحك المؤمنين، فهو الباقى المتواصل، حيث تغمرهم سعادة أبدية ونعيم مقيم بفضل الله تعالى:

قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون.

فحسن العاقبة والخاتمة هى الحكم الفصل فى قضية الضحك ممن أنهى وختم حياته باتباع منهج الله تعالى كان له أن يسعد ويضحك سروراً ورضا بفضل الله وهو سرور وضحك متواصل.

فليضحكوا قليلاً!

هناك صورة أخرى ينقلها إلينا القرآن الكريم وتصورها الآيات البينات فى صورة بيانية رائعة عن أناس فرحوا بأعمالهم السيئة وحسبوا أنهم يحسنون صنعا، ففرحوا بما فعلوا وضحكوا على ما صنعوا، ظناً منهم بأنهم قد فازوا بفعلتهم ونجوا بها من شر كان سيحيق بهم، وما هى إلا أيام قليلة حتى انكشف أمرهم، وأدركوا أنهم لم يحسنوا صنعاً، بل خابوا فى فعلهم وخسروا كثيراً، فكان ندمهم وبكاؤهم على الخسارة كثيراً جداً، بالقياس إلى ما ضحكوا به من قبل ظناً منهم بأنهم قد نجوا.

وهذا حدث فى قصة المنافقين الذين احتالوا فى أقوالهم على رسول الله ﷺ حتى تمكنوا من التخلف عن الخروج مع المسلمين فى غزوة تبوك وساقوا الأعذار والحجج لكى يستثنيهم النبى ﷺ من الخروج. «وما أن تحقق لهم ما يريدون وظنوا أنهم نجحوا فى حيلتهم، وأنهم بما ساقوا من حجج أتاح لهم التخلف عن المشاركة فى تلك الغزوة فقعدوا فى بيوتهم ولم يشاركوا لا بأنفسهم ولا بأموالهم، وفرحوا بهذا التخلف فرحاً شديداً، وضحكوا ظنا منهم بأنهم قد نجحوا فى أن يخدعوا رسول الله ﷺ، فسمح لهم بالقعاد والتخلف عن الجهاد.

لكن الله تبارك وتعالى كشف حيلتهم، وفضح أمرهم وأخبر النبى ﷺ بما تكنه صدورهم وأنزل فيهم حكماً قاطعاً حوّل فرحهم إلى حزن طويل وبدل ضحكهم إلى بكاء كثير فقال تعالى:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة: ٨١، ٨٢)

فهذه الآيات الكريمة تقص علينا نبأ المنافقين فى غزوة تبوك من أنهم ذهبوا إلى رسول الله ﷺ يسوقون إليه الأعذار التى تمنعهم عن الخروج فى تلك الغزوة، وتحول دون أن يجاهدوا بأنفسهم أو بأموالهم فى سبيل الله.

وكشفت الآيات القرآنية الكريمة كذب ما ساقوه عن أعذار، وبينت سبب

تخلفهم فى أنهم كرهوا الجهاد فى سبيل الله بأنفسهم أو بأموالهم، وأن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بمنع أنفسهم والبخل بأموالهم بل بدأوا حرباً نفسية ضد الخارجين للجهاد ليردوهم عن طاعة الله ويصدوهم عن الجهاد ويضعفوا من عزمهم، فقالوا لهم: «لا تنفروا فى الحر» أى أن الجو شديد الحرارة، فلا داع للخروج فى هذا الجو حتى يعتدل، فكان الرد قاطعاً داحضا لرأيهم حيث قيل لهم: «قل نار جهنم أشد حرّاً لو كانوا يفقهون».

وخرج النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين تاركين المخلفين من المنافقين فى المدينة كالعجزة والنساء والأطفال، ودفعهم شدة غبائهم أن يتصوروا هذا التخلف على أنه نجاح كبير ففرحوا به، ولأنهم ظنوا أن النبى ﷺ صدقهم فيما زعموه من أعذار فضحكوا.

وكان ضحكهم لا قيمة ولا وزن له مقارنة بما لاقوه بعد عودة النبى ﷺ وصحابته من هذه الغزوة فرحين بالنصر على أعدائهم، وكشف الله تعالى وفضح نوايا المتخلفين فكان فى تخلفهم الخزى والعار مما دفعهم إلى البكاء كثيراً وأكثر مما ضحكوا فى أول الأمر.

ولو تصورنا أن هؤلاء المنافقين ومن على شاكلتهم ظلوا أبد الدهر على مدى العمر المقدر لهم يضحكون، فإن ضحكهم هذا مهما بلغ فإنه سيكون قليلاً، لأن الدنيا بأسرها قليلة وعمرها قصير، أما ما يلى ذلك من الحياة الآخرة فإنها طويلة لا نهاية لها، أبدية لا زوال لوجودها وما فيها - ضحك كان أو بكاء - فإنه دائم غير مقطوع وموصول غير مفصول.

كما أن هؤلاء المنافقين الذين كذبوا ونافقوا واحتالوا على رسول الله ﷺ حتى يقعدوا فى البيوت مع العجائز والنسوة والصبية، ويتخلفوا عن القتال قد فضحهم الله تعالى فى الدنيا، وبعد عودة النبى ﷺ وصحابته من هذه الغزوة أخبر الله تعالى نبيه بأسماء هؤلاء المنافقين وسماهم النبى ﷺ بين الصحابة حتى انفضح أمرهم وجاءوا إلى النبى ﷺ يعتذرون عن تخلفهم وساقوا مزيداً من الأعذار فقال الله تعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن

نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ (التوبة: ٩٤)

وعندما انكشف أمر المنافقين وفضح الله تعالى نواياهم تحول فرحهم إلى حزن شديد، وتغير ضحكهم إلى بكاء المخزى المنكسر الأذل بفعلته بين الناس وعلى أعينهم.

ولم يكن حزنهم وبكاؤهم لحظة الفضيحة فقط، ولا عندما كشف الله أمرهم أمام النبى ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم، بل استمر الحزن طويلاً وامتد البكاء كثيراً، ودام زمن الخزى والعار بهم أمدا بعيداً يزداد كل يوم حدة، وترتفع حرارة البكاء كلما مر الزمن، حتى بلغت ذروتها عندما جاء أمر الله تعالى لنبيه ولصحابته أن يعرضوا عن هؤلاء المنافقين ولا يجالسوهم أو يقعدوا معهم البتة مبيناً أنهم ليسوا أهلاً لذلك، لأنهم أصبحوا بفعلتهم هذه رجس ونجاسة فى الدنيا وفى الآخرة، لهم جهنم جزاء على ما صنعوا، حيث قال تعالى:﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٩٥، ٩٦)

ففى هذه الآيات الكريمة تعبير صادق وتصوير بالغ لما آل إليه حال المتخلفين عن رسول الله ﷺ، وكيف أنهم بعدما فرحوا بفعلتهم وضحكوا لتخلفهم هرعوا إلى النبى ﷺ ومن معه من الصحابة – رضوان الله عليهم – يحلفون بالله ويعتذرون أنهم لم تكن لديهم القدرة البدنية ولا القدرة المالية للخروج معهم للقتال فى هذه الغزوة، ولا أن يجهزوا بأموالهم من أراد الجهاد.

وكيف أنهم يحلفون بالله لكى ينالوا العفو والصفح والرضا من رسول الله ﷺ ومن صحابته، ومع ذلك فإن الله تعالى ينبه نبيه ومن معه بعدم الرضا على هؤلاء وعدم العفو عنهم، لأن الله تعالى لن يرضى عنهم مهما كان السبب، وأن على الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه أن يعرضوا كلية عن هؤلاء الرجس الذين لا مأوى لهم سوى نار جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وأمر النبى ﷺ المسلمين بأن يمتنعوا عن مخاطبة هؤلاء المتخلفين أو القعاد

معهم، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم».

فإذا كان هؤلاء المتخلفون الذين ضحكوا فى بداية الأمر طلبوا أعراض الصفح والعفو، فلا يكون لهم إلا أعراض المقت والمقاطعة لهم ليدركوا جرم ما اكتسبوه من الفعل ولتطول فترة بكائهم.

وهذه حال تجعل أصحابها فى غاية الحزن، وفى شدة البكاء لما يختلج فى النفس من مرارة المقاطعة وخزى الفضيحة، حيث أعلن المجتمع بأسره مقاطعة هؤلاء المنافقين بعدما فضحهم الله تعالى، وكشف سوء نيتهم، وهذه المقاطعة أدت إلى شعورهم باليأس والإحباط لما فى ذلك من إيذاء تعس يطيل حالة الحزن والبكاء، فيمحو بذلك ما كان منهم فى بادئ الأمر من فرح وضحك، لكن ذلك كان قليلاً للغاية وضئيلاً، بحيث لا يدرك ولا يرى.

ومن هنا يتأكد لهم أن ضحكهم فى بادئ الأمر كان مقطوعاً لا قيمة له ولا هدف منه وكل ضاحك بما وجب عليه، وكل مستهزئ بما هو مطلوب منه سرعان ما يقع فى حرج شديد وضيق خطيرلتهاونه فيما وجب عليه أو حق له.

والعاقل من تدبر أمر نفسه، وألقى بفكره إلى حيث ينبغى، فلا يهزأ بالواجب ولا يسخر بالمطلوب، لأنه سرعان ما تتكشف الأمور وتتضح بل وتتفضح الأسرار فيتحول الفرح إلى حزن والضحك إلى بكاء ندماً على ما فات، وأسفاً على ما حدث فى وقت لا يفيد فيه الأسف.

وعلينا أن ندرك عواقب الأمور قبل فوات الأوان، ونأخذ بالجد ونلتزم بالجدية حتى ما إذا جاءت النهاية الحتمية كنا مع الفائزين رضا والضاحكين سروراً فى أبدية قائمة.

أما الخاملون الأغبياء فإنهم يأخذون عرض هذه الدنيا بل عرض الأدنى منها فيلهون عندما يراد الجد، ويهزأون عندما يطلب التعقل، فتأتى النهاية بخيبة الأمل ويحل بدارهم البوار والخسار فيطول زمن الحزن ويطول عمر البكاء، بل يستمر طوال الأبد.

سفينة نوح!

لم يكن النبى محمد ﷺ هو النبى الوحيد الذى سخر منه الكافرون واستهزأ به المشركون، وضحك عليه المنافقون، فكل الأنبياء استهزأ بهم وسخر منهم وضحك عليهم السفهاء وسفلة القوم.

ويقص علينا القرآن الكريم ما تعرض إليه كثير من الأنبياء من عبث العابثين واستهزاء السفهاء وسخرية السفلة والدهماء ومع أن الأنبياء أفضل الناس جميعاً، إلا أنهم كانوا محل استهزاء وسخرية من دهماء الناس والسفهاء فيهم.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر ما جاء فى قصة أول رسول فى تاريخ البشرية وأبى البشر الثانى بعد آدم نوح عليه السلام مع قومه، كما جاء فى القرآن الكريم، حيث أن قوم نوح كانوا أول قوم عبدوا الأصنام وأخذ نوح عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، فما آمن معه من قومه إلا قليل بعد دعوة استمرت ما يزيد على تسعمائة عام.

ثم جاء أمر الله تعالى لنوح عليه السلام أن يصنع سفينة فى موضع ليس به مياه أو مصادرها أو حتى قريباً من مصب المياه، فكان قومه كلما مروا على نوح عليه السلام جعلوا منه ومن سفينته مادة فكاهية يتندرون بها ويسخرون من نوح عليه السلام وسفينته، وربما يكون ضحكهم على نوح عليه السلام وسخريتهم منه هو بُعد مكان السفينة عن مصادر الماء، وعجز نوح عليه السلام عن حمل تلك السفينة العملاقة إلى مصادر الماء، ومن هنا كانت سخريتهم بنوح وبسفينته وضحكهم عليه عندما كان يصنع هذه السفينة التى أمر بصناعتها حيث قال تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ (هود: ٣٨)

ولكفرهم وجهلهم وجحودهم أنكروا قدرة الله تعالى على إنزال الماء حيث تصنع السفينة، أو أن يفجر الله تعالى من تحتها العيون الجارية أو الأنهار الفياضة لتحملها حيث يشاء الله تعالى ولا يكون هناك بر أمان سوى تلك السفينة التى جعلوا منها مادة للسخرية والاستهزاء بنوح ولهذا الكفر والجحود كانوا قوم

نوح عليه السلام لا يصدقون نبيهم فيما يدعوهم إليه وما يحذرهم منه من أمر الطوفان فكانوا يسخرون منه ويضحكون عليه.

وكان نوح عليه السلام يحذرهم من هذه السخرية الباطلة وينذرهم بقدوم وقت الطوفان، وأنه سيأتي بأمر الله عندما يشاء ولا راد لمشيئته، ويدعوهم إلى ترك العناد والإيمان بالله الواحد، فكانوا يزدادون سخرية به وضحكاً عليه، فأخبرهم بأنه سيأتي الوقت المناسب ليسخر منهم كما سخروا منه، ويضحك عليهم كما ضحكوا عليه.

﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (هود: ٣٨)

ويأتي الطوفان وتنطلق سفينة نوح عليه السلام وعليها من آمن وهم قليل من ذريته ومن الكائنات الحية من كل زوجين اثنين ويصبح الكفار والمشركون موضع سخرية ويضحك عليهم نوح كما ضحكوا عليه من قبل لأنهم كما قال الله تعالى فيهم:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ * هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ * أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (النجم: ٥٢ ـ ٦٢)

إذا هم منها يضحكون

من النماذج القصصية التى سردتها لنا الآيات القرآنية مشيرة إلى موضع الضحك منها قصة موسى عليه السلام مع فرعون عندما أخبره موسى بأنه نبى مرسل من عند الله ومعه من الآيات البينات ما يدل على صدق قوله..

لكن فرعون وعلية القوم من آل فرعون انخرطوا فى الضحك على ما يقول به موسى عليه السلام وما يزعمه بين أيديهم، كما جاء فى قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (الزخرف: ٤٦، ٤٧)

وهناك عدة دوافع منطقية لكى يضحك من قول موسى عليه السلام كل من فرعون وملئه أو من كان فى موضعهم، فموسى عليه السلام تربى فى بيت فرعون، وبين أهله، ففرعون ومن معه من أهله يعلمون كل شىء عن موسى عليه السلام، فعجبوا كل العجب أن يغيب عنهم موسى الذى تربى بينهم ثم يأتى ليزعم أنه نبى مرسل من عند رب العالمين، «فإذا هم منها يضحكون».

كما أن موسى عليه السلام فر هارباً من مصر بعد قصة قتله للرجل القبطى الذى كان يتنازع مع رجل من بنى إسرائيل وأراد موسى عليه السلام أن يصد القبطى فقضى عليه ومات الرجل.

وخوفاً من القصاص، وخوفاً من تآمر قوم فرعون أو علية القوم بموسى ليقتلوه نظير قتله لرجل منهم فر موسى عليه السلام من مصر هارباً خائفاً يترقب.

وبعد أن يخرج على هذا الشكل ويغيب عن مصر بضع سنوات يرجع إلى فرعون وملئه ليخبرهم بأنه نبى مرسل من عند رب العالمين فإذا هم منه يضحكون. وهو ضحك المفاجأة لأنهم عندما علموا أن موسى بالباب ظنوا أنه ما حضر إليهم إلا ليعتذر عما بدر منه من سنوات، ويتوب أمام فرعون عن قتله لهذا الرجل القبطى، فإذا بموسى عليه السلام وعلى غير ما كانوا ينتظرون منه يخبرهم بأنه أصبح نبيّاً مرسلاً من عند رب العالمين ويأمرهم باتباعه وإرسال بنى اسرائيل معه.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛ (الزخرف: ٤٧)

كما أن التناقض فى الموقف حيث توقعوا أن يكون موسى قد غاب كل هذا الوقت وهذه السنين ليجمع دية القتيل ويقدمها مصحوبة بالندم والاعتذار بين يدى فرعون، فإذا به يعلن أنه نبى مرسل من رب العالمين ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛ (الزخرف: ٤٧)

وعجباً منهم على ما قاله موسى ﷺ ضحكوا، فلقد جاءهم بما يتناقض تماماً مع عقيدتهم وما يختلف نهائيّاً عن ديانتهم فهم لا يعلمون أن هناك ربّاً لهم سوى فرعون الذى أوهمهم بذلك عندما قال:

«ما علمت لكم من إله غيرى»..وقوله: «أنا ربكم الأعلى».

وإذا بموسى ﷺ يعلن أنه نبى مرسل من عند رب العالمين ويكشف لهم مبيناً أنه لا رب إلا رب العالمين.

﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (الزخرف: ٤٧)

عجباً مما جاء به موسى ﷺ، بما يخالف ما اعتادوه وساروا عليه، وما كان عليه الآباء والأجداد من تأليه فرعون، ولا يرون لهم ربّاً سواه، فكان ما جاء به موسى ﷺ فيه ما يهز وجدانهم ويرج كيانهم، لكنهم بدلاً من التدبر فيما قال والتأمل فيما جاء به ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (الزخرف: ٤٧)

وكذلك فإن موسى ﷺ عندما أخبرهم بأنه نبى من عند رب العالمين، قالوا له ما دليل ذلك؟:

قال: معى آيات بينات، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هى بيضاء من غير سوء.

ومع أن موسى ﷺ أظهر آيات صدقه وبينات نبوته، وكان الأولى بفرعون وملئه أن يؤمنوا برب العالمين رب موسى وهارون إلا أنهم ضحكوا من هذه الآيات على أن ما جاء به موسى فى نظرهم ما هو إلا من قبيل السحر الذى مهر فيه

آل فرعون ونبغ فيه السحرة فى الأقطار المصرية.

فعندما كشف لهم موسى عن تلك الآيات التى رأوها أنها لا تختلف عن سحر السحرة، وأنه بإمكانهم أن يأتوا بالسحرة من كل مكان فيهزموا سحر موسى عليه السلام ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛

وروى أن موسى عندما أعلن أنه نبى مرسل من عند رب العالمين وسأل فرعون ببجاسة عن رب العالمين، وطلب منه أن يأتىَ بآية تثبت ذلك ألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين هرع فرعون وفزع خوفاً منها حتى بال على نفسه، فإذا بملئه ومن حوله لا تعجبهم تلك الآيات ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾

ثانياً: التشبيهات القرآنية الساخرة

ذكر القرآن الكريم فى كثير من الآيات مادة كلمة الضحك، مبيناً المذموم فيه والممدوح منه، والمقبول والمرفوض. كما ذكر القرآن الكريم مواقف لم يجد أصحابها ما يعبرون به عن مشاعرهم سوى الضحك، كما سرد القرآن الكريم حكايات ينبعث من جوانبها الضحك والسرور والتبسم.

وإضافة إلى ذلك، يجد الناظر فى كتاب الله تعالى، أن القرآن الكريم أطلق الكثير من التشبيهات الساخرة، سواء على المعرضين عن منهج الله تعالى، أو المنافقين، أو الكافرين. سواء كانت هذه التشبيهات الساخرة المضحكة أطلقت لتصور حالهم فى الدنيا، أو ما ينتظرهم فى الآخرة. فإن القرآن الكريم يطلق عليهم الكثير من التشبيهات الساخرة ليرسم فى أذهان الناس صورة هزلية مضحكة ومنفرة من هؤلاء الناس.

وإذا كانت السخرية واحدة من أهم أساليب الضحك، فإننا سنجد أن القرآن الكريم أطلقها ليصور هؤلاء الناس بصورة صادقة لا كذب فيها، بشكل جاد لا هزل فيه، وبأسلوب ساخر يدعو إلى الضحك لا الابتذال، أو السفه أو التهريج.

كما أن القرآن الكريم لم يطلق هذه التشبيهات على سبيل الاستهزاء أو الاحتقار لصنف من الناس، ولكن على سبيل الاعتبار بهم والزجر من سلوكهم وتقبيح أفعالهم، وكيف أن ما اختاروه كمنهج لحياتهم، أدى بهم إلى أن يكون فى أشكال وصور هزلية، تجعل أصحاب العقول السليمة والقلوب المؤمنة أن يعبروا عن مشاعرهم بالضحك حيال تلك الصورة الهزلية.

وكان الأولى بهؤلاء إن كان لديهم عقل يعقلون به أن يختاروا لأنفسهم خيراً من ذلك، وإن تكون أفعالهم حسنة ليحسّنوا بها صورهم، ويرفعوا بها مكانتهم عند الله تعالى، ولكنهم اختاروا ما يضعهم موضع السخرية والاحتقار والازدراء، لقبح أفعالهم وسوء تصرفهم، فأطلق القرآن الكريم عليهم هذه التشبيهات الساخرة من سلوكهم ليعطى تصويرا حقّاً، وتعبيراً حادّاً عن حالهم، ليكونوا موضع ازدراء وتحقير من العقلاء، ولنقف على نماذج من هذه التشبيهات الساخرة فى كتاب الله تعالى، وكيف صور القرآن الكريم هؤلاء الناس.

الحمير المفزوعة

واحدة من التشبيهات الساخرة المضحكة التى أطلقها القرآن الكريم على المعرضين عن سماع دعوة الحق، وداعى الهدى، حيث يرسم لهم القرآن الكريم صورة منكرة، لأنهم لم يعقلوا، ولم يتحاوروا، أو يناقشوا أو حتى يجادلوا، ولكنهم أعرضوا بشكل جعلهم كالحمير المفزوعة الخائفة، وهى فى فزعها وخوفها تفر من الساحة لوجود أسد فيها، فيقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾

(المدثر: ٤٩، ٥٠، ٥١)

فهؤلاء المعرضون عن سماع دعوة الحق والاستجابة لله تعالى ولرسوله يشبههم القرآن الكريم فى نفورهم وإعراضهم عن الموعظة والتذكرة بالحمير الفارة الهاربة من وحش كاسر وهو الأسد.

ولك أن تتصور ما تشير إليه وما تتضمنه كلمة «حُمر» وما فى هذه الكلمة من دلالة على شدة الغباء، لأن الحمار يضرب به المثل فى الغباء، ولذلك قالوا إنه كان آخر من يضحك فى الغابة على نكتة أطلقت من عدة أيام.

والحمير يضرب بها المثل على من ألغى عقله وأراح نفسه من التفكير فلا يشبه الحمار من البشر إلا من صار أبله غبيّاً لا يدرك ما ينفعه مما يضره، وما هو خير له وما هو شر، وتختلط لديه الأمور، فلا يفرق بين الغث والسمين، ولا يعرف التبر من التراب، ويعرض عن الدواء، وهو تحت قدميه، وقد يقتله العطش والجوع والعلف والماء على ظهره محمولان، وهو دائما لا ينتفع بما حوله، ولا يستفيد غالباً بما هو متاح له، ولذلك نجد أن القرآن الكريم يشبه اليهود الذين لم ينتفعوا من صادق التوراة، وأنهم عندما أنزلت عليهم التوراة وما فيها من هدى ونور، كان عليهم أن يعملوا بما فيها، ويلتزموا بما حوت من عقيدة وشريعة، لكنهم - وبصفة خاصة علماء بنى إسرائيل الذين حفظوا التوراة حفظاً تامّاً، وعلموا أحكامها ومقاصدها - لم يعملوا بما فيها، فهم كالحمير التى تحمل أسفاراً،

وكذلك أهل القرآن الذين لا يعملون بما فى القرآن من أحكام وعقائد، وشرائع، فهم كالحمير أيضاً، يحملون أسفارا لا يستفيدون منها، ولا ينتفعون بما فيها، وعادة لا ينتفع الحمار بما يحمل، ولم يجر على نفسه سوى الكد والنصب وبذل الجهد والتعب فى حمله لهذه الأسفار الثقيلة، فما انتفع بحملها قدر - ما أضر - نفسه بأعباء حملها.

فالحمار يضرب به المثل فى الغباء، والبله، وعدم الفهم والإدراك، ومع ذلك تجده أمام الأسد الجسور القوى، خائفاً مفزوعاً، فيفر من أمام الأسد خوفاً من الهلاك لكنه يفر نحو الهلاك بعينه.ولك أن تتصور مجموعة من الحمير الوحشية تركت أرضها التى ترعى فيها وتلهو وتمرح وتأكل من تلك الأرض رغدا حيث شاءت، لكنها بمجرد أن ترى أسدا حتى تفر هاربة مذعورة، كذلك المشركون الذين يعيشون فى أرض دعاة الهدى، لكنهم لا يستمعون إليهم ويفرون منهم فرار الحمير من الأسد الجسور.

وهى صورة ساخرة وتشبيه صور هؤلاء المشركين فى صورة هزلية مضحكة، حيث إنهم لو أعملوا عقولهم وأمعنوا التفكير، ما فروا مذعورين هاربين كتلك الحمر التى فرت من قسورة.

الكلب الذى يلهث

فى صورة هزلية ساخرة، يصور لنا القرآن الكريم حال ذلك الرجل «بلعام ابن باعوراء» الذى أتاه الله تعالى من الآيات، وأسبغ عليه النعم الوفيرة، وكان الأجدر به أن يتمسك بتلك الآيات، وأن يتمسك بما جاءت به وما احتوته لأنه وقف على أسرارها، وعرف فضلها ومنزلتها، وما فيها من نفع عظيم، ولكنه انسلخ وأعرض عما فيها، وتصور واهماً أن الخير فى غيرها، فهرع خلف هواه، ووجد الشيطان فى «بلعام» فرصة لكى يزيده ضلالا وغياً وبعدا عن تلك الآيات، وعن الالتزام بما فيها.

وبعد أن انسلخ بلعام عن تلك الآيات واتبع الشيطان والهوى، نزل من مكانته الرفيعة التى رُفع إليها بسبب تلك الآيات، وانحط إلى درك خطير، حيث التصق بالأرض، وفقد مكانته ومنزلته وهيبته، وصار فى حاله ومآله كالكلب الذى فتح فاه، وأخرج لسانه خارج فمه، وأخذ يلهث فى كل حال، سواء كان نائماً أو جالساً أو ماشيا أو جارياً، وسواء أفزعه شىء، أو لم يفزعه شىء ولك أن تتصور تلك الصورة الساخرة التى رسمها القرآن الكريم بقول الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٥، ١٧٦)

وهذا تصوير يكشف حال أولئك النفر الذين تركوا ما أنزل الله لهم من الآيات، وما جاءهم به من الذكر، وبعد أن عرفوه وتعلموه وساروا على نهجه برهة من الزمن وقسمة من الوقت، لكنهم وبدون مبرر وبلا سابق إنذار انسلخوا عن منهج الله وآياته، ففقدوا مكانتهم وخسروا منزلتهم بانسلاخهم عن منهج الله وآياته وهروعهم إلى ما لم يحقق لهم عزة، وانساقوا خلف ما لم يرفع لهم شأناً ولم يُعلى لهم مكاناً، فأصبحوا بين بين، لا هم انتفعوا بالآيات ولا هم حققوا

مرادهم فيما ذهبوا إليه.فحال هؤلاء كحال الكلب الذى يلهث فى كل حال، وإذا كان الكلب لا يلهث أو لا يصدر اللهث من أى حيوان إلا بعد بذل الجهد والكد فأصابه الإعياء والإرهاق فصدر عنه هذا اللهاث.

وهذا التصوير الساخر يطلق على الذين يريدون أن ينسلخوا أو انسلخوا بالفعل عن عقائدهم، وعن المبادئ التى تربوا عليها فى مجتمعاتهم، وهجروا عاداتهم وتقاليدهم، وهرعوا فى تقليد الغير والسير خلفه، فأصبحوا كالحمامة التى أرادت أن تقلد الغراب فى صوته، وأخذت تتدرب على تقليد الغراب حتى نسيت صوتها الحقيقى، ولكنها لم تبلغ أن أحسنت تقليد الغراب، وأدركت الفشل فى محاولة تقليدها للغير، فأرادت الرجوع إلى صوتها فاكتشفت أنها فقدت صوتها أيضاً، فلا هى قلدت الغراب، ولا هى حافظت على نبرات صوتها الأصلية.

كذلك هؤلاء الذين انسلخوا عن قيمهم وحضاراتهم ومبادئ دينهم وشريعتهم بغية تقليد الغير، فإنهم فى سعيهم هذا، فقدوا مكانتهم وخسروا منزلتهم الرفيعة، ومن ذلك تراهم فى صورة ساخرة هزلية، فحالهم كحال الكلب الذى يلهث من الإعياء والجهد.

أضل من البهائم

فى تشبيه ساخر، يرسم لنا القرآن الكريم صورة هزلية لكل من لا يحسن التأمل والتفكير والتدبر، فيجعله كالبهائم، بل هو أكثر من ذلك حيث إنه أضل من تلك البهائم.

فالله سبحانه وتعالى لم يخلق لنا حواس الإدراك عبثاً، بل لكى ندرك بها حقائق الأمور بعد المشاهدة، والسمع ثم التأمل والتدبر، فخلقت العين لتبصر ما حولها من خلق ومخلوقات غاية فى العظمة، وغاية فى الجمال والروعة والدقة، ولكن كثيراً من الناس لا يبصرون الجمال فى الكون ولا يرون الحسن فى الخلق، ولا يدركون عظمة الخالق فيما خلق، ولا قدرة المبدع، فيما أبدع، ولا روعة المصور فيما صور من صور الجمال فى خلقه.

وخلقت الآذان لتسمع نبرات الأصوات ونغماتها، وتاريخ الخلف وقصص السابقين وموعظة الواعظين وتذكرة المذكرين، ولكن كثيرا من الناس صموا وعموا، فلم ينتفعوا بنعمة السمع وصرفوها حيث أراد هواهم، ولم يدركوا بها العبرة والعظة وما ينتظرهم من مصير محتوم.

فهم فى عدم استفادتهم بتلك النعم واستخدام الحواس فى التعرف على المحسوسات وجمالها وروعة صوتها والتفكير فى إدراك قيمة هذا الجمال وتعظيم صانع ذلك الجمال، فهم عطلوا تلك النعم، فأصبحوا فى ذلك أشبه بالبهائم.

ويزيد القرآن الكريم فى تصويرهم بأنهم أضل من البهائم، لأن البهائم تؤدى دورها المطلوب منها، وتعيش وفقا لما خلقها الله لها، لكن كثيراً من الناس لم يعيشوا وفقاً لما أمرهم الله به من التبصر والتأمل والتدبر، فعاشوا كالبهائم فى الدنيا ثم مصيرهم النار فى الآخرة، كما صورهم القرآن الكريم بقوله تعالى فى سورة الأعراف:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩)

ذبذبة المنافقين

لأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ويعلنون خلاف ما يكتمون، وتتجمع فيهم كثير من الصفات السيئة، والأخلاقيات المنحطة، قَلَّ ما تتواجد حتى فى الكفار والمشركين، فهم كما وصفهم النبى ﷺ: «إذا تحدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا».

فإن آية واحدة من تلك الصفات السيئة، والأخلاقيات المنحطة، تجعلهم محط سخرية واستهزاء واحتقار وازدراء.

ولذلك نجد أن القرآن الكريم رسم العديد من الصور الهزلية فى تشبيهاته الساخرة من المنافقين وأحوالهم، هذه التشبيهات تحتاج إلى دراسة منفصلة، لكننا سنعرج على بعض منها قدر الإمكان.

ولأن المنافقين يخادعون الله تعالى، ويستهزئون بالمؤمنين ويهزأون منهم، فإن الله تعالى يصورهم ويشبههم بمن صار فى ليلة ظلماء حالكة السواد، وليس معه ما يشعل به ناراً، حتى يرى بنورها موضع قدمه، وهو فى ذلك يعانى من شدة البرد وخطورة الصواعق، يحاول وضع أصابعه كلها فى أذنه حتى يخفف من الألم الصادر عن صوت الصواعق، ويبحث عن مصادر نار أو نور، حتى يسير فى طريقه لينجو من هذا الموقف، ولكنه يخشى أن يضع قدمه موضع الهلاك، فهو متسمر فى مكانه، يخشى ويهاب أن يخطو خطوة ولكن يضاء له بنور عن بعد، لكنه بمجرد أن يلمح النور ويحاول أن يخطوَ خطوة واحدة يذهب النور، فيرجع صاحبنا حيث كان، وحيث المعاناة فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧)

ثم يقول تبارك وتعالى فى تكميل التشبيه الساخر فيهم:﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (البقرة: ٢٠)

تشبيه آخر يطلقه القرآن الكريم ساخراً من حالهم، أن المنافقين لا مبادئ

لهم، ولا فكر لديهم، ولا إيمان عندهم، فتراهم تارة مع هذا وتارة ضده، وتارة مع الآخرين، وتارة ضدهم، فهم كما وصفهم الله تعالى فى حيرة من أمرهم، ليس لهم بَر أو جانب يرسون عليه.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٤٣)

كما يسخر القرآن الكريم من اعتماد المنافقين على مظهرهم الجسمى، وعلى حسن عباراتهم ولين كلامهم، حتى أن هناك من ينخدع بذلك فتعجبه أجسامهم، ويخدعه كلامهم، لكنهم فى الحقيقة أشبه بكتل الخشب المتراصة على الحوائط، وكما يقال فى ريف مصر «الواحد يسقف على زريبة» لكنه فى نهاية الأمر قطعة خشبية لا روح ولا حياة فيها، وفى ذلك التشبيه الساخر يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون: ٤)

هذا تشبيه غاية فى السخرية، حيث يرسم صورة ساخرة مضحكة من المنافقين، الذين يهتمون بالظاهر فقط دون الاهتمام بالباطن، والذين يعتمدون على أجسامهم أكثر من اعتمادهم على قلوبهم، ويحسنون القول ويسيئون العمل، بأنهم أشبه بالخشب الجاف الذى لا حياة فيه ولا روح، وهو أقرب إلى النار وإلى الهلاك.

كما يرسم القرآن الكريم صورة مضحكة عن هؤلاء المنافقين المتعالين بضخامة أجسامهم، حتى يظن البعض أن لديهم شجاعة عظيمة تتساوى مع أجسامهم المهيبة، وأنهم أقوياء يقهرون خصومهم.

لكن حقيقة الأمر، أن أجسامهم كالأخشاب المتراصة تملأ حيزا من الفراغ، وإن خلا منهم لكان خيراً، ومع أن أجسامهم غاية فى الضخامة والهيبة إلا أنهم غاية فى الجبن والخوف فهم يحسبون كل صيحة عليهم.

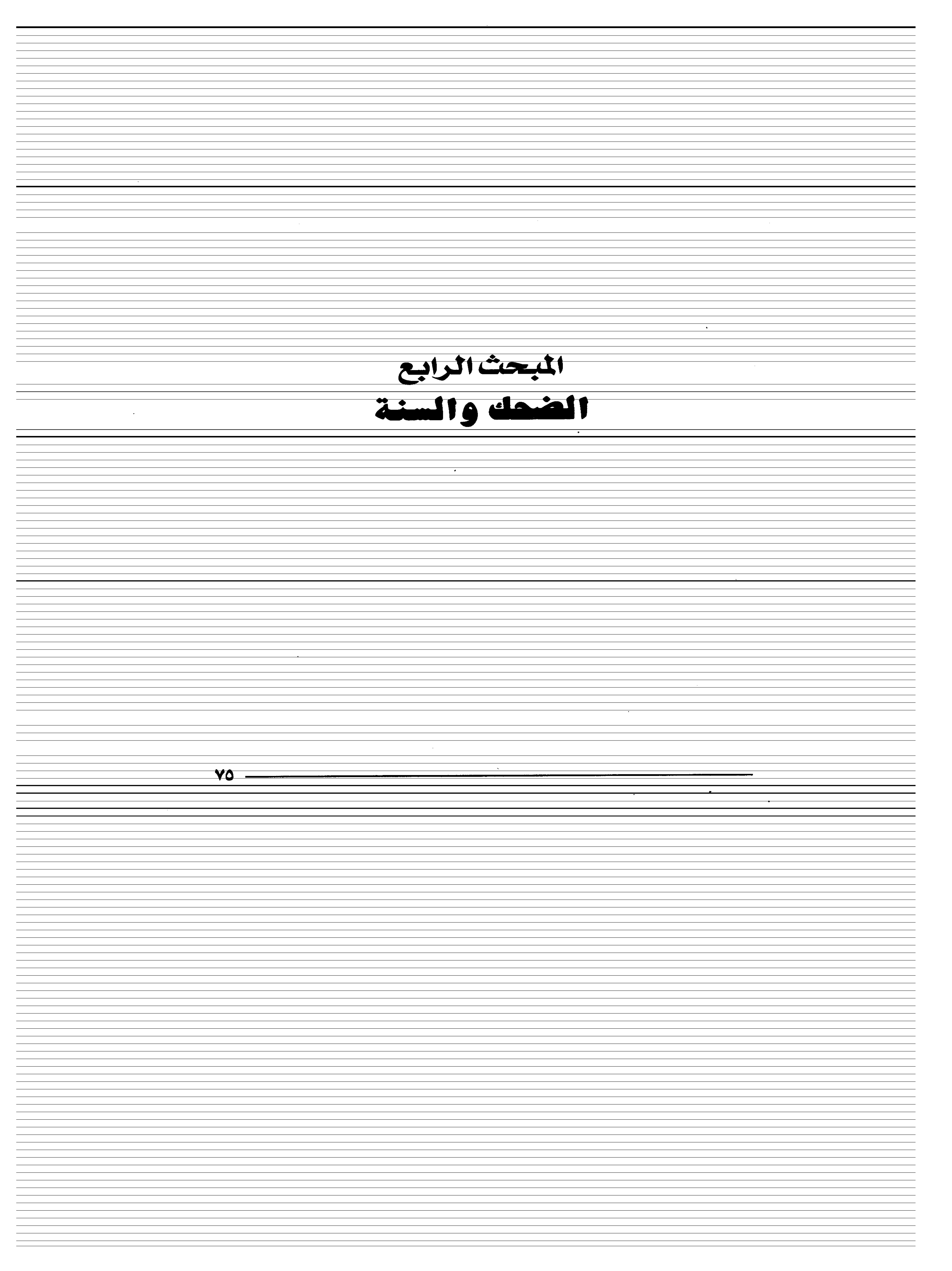
ولك أن تتخيل أن جماعة من العماليق ذوى الأجسام الضخمة والأبدان الممتلئة، حتى أنك تعجب بهذه الأجسام وتهابها وتخشاها وتتفادى الاحتكاك بواحد منهم خشية البطش بك، وإذا بك يصدر عنك صوت عفوى خارج بلا إرادتك مثل «الكحة» أو العطسة، أو التأوه أو حتى قلت «بخ» على سبيل التهريج معهم، فإذا بهم جميعاً بمجرد سماعهم لما صدر عنك من صوت، يهرعون هاربين فزعين فى الاتجاه الآخر، هنا سيتملكك الزهو بنفسك فتضحك، وتناقض التصور مع الحال يضحكك فالذى تصورت أنه بضخامة جسمه شجاعاً، فإذا به جبان يفزع من أى صوت، وهذا أمر مضحك، كذلك قد يراودك أن تبرم مع هؤلاء اتفاقاً، أو تتخذ واحدا منهم صديقاً، أو حتى أجيراً ترعب به خصومك، أو تستعين به على ما تتعرض له من مواقف حرجة، فإذا بك تتبين قدر جبنه وفزعه وخوفه من مجرد صوت، فإذا بك أنت ضاحك مما تصورت ومما اكتشفت.

ويصور الله تعالى جبن المنافقين وخوفهم الشديد، بأنهم لو وجدوا مغارة أو مهرباً يهربون منه عند النزال لهرعوا إليه، وأنتم تحسبونهم أقوياء شجعان فرسانا لا يخافون النزال أو المعارك، وهم فى الحقيقة كما قال تعالى:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (التوبة: ٥٦ ، ٥٧)

هذه بعض النماذج والصور التى تبين أن القرآن الكريم، لم يخل من الإشارة إلى الضحك فلم يعبه، إن كان حقّاً، ولم يقبله إن كان كذباً لا غاية منه، ولا بقاء ولا استمرار له.

كما صور القرآن بعضاً من المواقف الداعية إلى الضحك، وأطلق التشبيهات الساخرة التى تدعو إلى الضحك من الذين سخر منهم القرآن ووصفهم بسخرية، ورسم لهم صورة هزلية بسبب قبح أفعالهم وغفلتهم وشدة ما يتمتعون به من غباء.



المبحث الرابع

الضحك والسنة

أولاً: الضحك والفقه

قد لا تكون هناك حاجة ضرورية لمعرفة حكم الضحك، أو التبسم أو المزاح، أو الفكاهة فى الفقـه الإسـلامى، بعـد أن تعـرضنا لتلك المواقف والإشـارات الضاحكة فى القرآن الكريم والتى كان أبطالها أنبياء وزوجات أنبياء، ومؤمنين. ولن يكون هناك لبس علمى أو فقهى عندما نستعرض بعضاً من المواقف والصور التى ضحك فيها النبى ﷺ ومازح فيها أصحابه، أو أهل بيته، أو عامة المسلمين.

ولمزيد من توضيح موقف الإسلام من الضحك والفكاهة والمزاح، نقف عند بعض الإجابات التى أجاب بها علماء وفقهاء الأمة، عندما عرضت عليهم أسئلة من الناس عن حكم الضحك والمزاح فى الإسلام هل هو مباح؟ أم محظور؟ وهل هو حلال؟ أم حرام؟ ومتى يكون مندوباً؟ ومتى يكون مكروهاً؟ ومتى يحرم؟!

فعندما سئل حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما عن الضحك: أحرام هو؟!

أجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متعجباً: كيف يكون حراماً، وأن الله هو الذى أضحك وأبكى؟!

ولما سئل سفيان الثورى: أيكون المزاح هجنة؟! - أى عمل منكر فعله.

أجاب أيضاً متعجباً: كيف يكون المزاح هجنة وهو سنة عن النبى ﷺ .. فلقد قال له أصحابه رضوان الله عليهم:

يا رسول الله: إنك تداعبنا فقال النبى ﷺ: «إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق». (أخرجه الترمذى).

فالضحك والمزاح من الأعمال المباحة شرعاً، ولا يخالف أحدهما ما جاء فى كتاب الله تعالى، أو يتنافى مع سنة النبى ﷺ، الذى تبسم وضحك حتى بدت نواجذه، ومازح أصحابه، وأهل بيته، وعامة المسلمين وخاصتهم، ولم يأت أحد من فقهاء الأمة، أو علماء السيرة والسنة بخلاف ذلك، ما دام أمر الضحك أو المزاح أو الفكاهة لم يخرج على حد الاعتدال.

كما أن الضحك والمزاح والفكاهة ما دام الأمر فيها لم يخرج عن حد الاعتدال، فإن أى واحد منها لا يمكن أن يخل برجولة، أو يحط من قدر، أو يجعل موضع صاحبه موضع احتقار، أو ازدراء، بل قد يضع صاحبه موضع التقدير والاحترام ما دام الأمر فى ذلك له أسبابه المنطقية ودواعيه المشروعة.

أما إذا خرج الأمر عن حد الاعتدال، فإن ذلك يعد عملاً مكروهاً، وكما يقول ابن حجر العسقلانى فى شرحه لصحيح البخارى: إن المكروه من الضحك إنما هو الإكثار منه والإفراط فيه، لأنه يذهب الوقار ويميت القلب.

قال ابن بطال: والذى ينبغى أن يقتدى به من فعله ما واظب عليه ﷺ من ذلك، فقد روى البخارى فى «الأدب المفرد» وابن ماجه من وجهين عن أبى هريرة رفعه - عن رسول الله ﷺ -:

«لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

فكثرة الضحك والإفراط فيه خروجاً على حد الاعتدال، وإسرافاً فى مباح حتى صار مكروهاً، وهذا أمر يتفق مع ما جرت به وعليه العادة فى الغالب الأعم. فإذا كثر الضحك بلا داع، أو حدث إفراط فيه بلا عقل واع، صار عملاً مستهجناً خارجاً على المألوف، وصار صاحبه بين العقلاء فى موضع ازدراء واحتقار خاصة إذا لم تكن هناك أسباب منطقية تدعو للضحك، وهذا ما يترجمه المثل الشعبى المتعارف عليه بين الناس والقائل: «الضحك من غير سبب قلة أدب».

فالضحك عمل مشروع أباحه الإسلام ولم يحرمه ما لم يخرج الأمر فيه عن حد الاعتدال، شأنه فى ذلك شأن كل ما تنطوى عليه طبيعة الإنسان من غرائز وعادات هى ضرورية للإنسان ولازمة من لوازم حياته كالضحك والبكاء والسرور والحزن، وكذلك الطعام والشراب، وغير ذلك من لوازم حياة الإنسان ووجوده والتى تقتضى أن تؤدى ويمارسها الإنسان فى توازن واعتدال بدون تفريط أو إفراط.

اما التبسم فهو مندوب، وسنة، حث عليها النبى ﷺ، حيث، ناشد الإنسان

المسلم بأن يكون بشوشاً فى وجه أخيه المسلم لا عبوساً، وأن يلقى أخاه المسلم مسروراً لا مقطب الجبين، وجعل النبى ﷺ التبسم فى وجه المسلم صدقة، فقال: تبسمك فى وجه أخيك صدقة، وجعل النبى ﷺ مقابلة المسلم للمسلم بوجه مسرور طلق من أعمال المعروف، فقال:

«كل معروف صدقة، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق». (رواه احمد والترمذى)

وبين النبى ﷺ، أن من أسباب محبة الله تعالى لعبده أن يكون العبد بشوشاً، باسم الثغر، طلق الوجه، فقال ﷺ: «إن الله يحب السهل الطلق الوجه». (رواه احمد)

مما سبق، يتضح أن التبسم يختلف حكماً عن الضحك والمزاح، حيث إنه (أى التبسم) سنة مندوبة يستحسن الحفاظ عليها، والتمسك بها، بخلاف الضحك لا يكون إلا إذا دعت إليه الضرورة بلا حرج فى ذلك، أما التبسم والسرور وطلاقة الوجه والبشاشة من الأمور التى ينبغى على المسلم أن يداوم عليها، وأن يتمسك بها لأن فيها اكتساباً للأجر والثواب من الله تعالى، وهى من أعمال المعروف بل من موجبات حب الله تعالى لفاعلها.

وإذا كان الضحك والمزاح من الأعمال المباحة والمشروعة، فقد تصبح من الأعمال المحرمة شرعاً، إذا كان الداعى إليها والباعث عليها أمرا حرمه الإسلام.

فإذا كان الباعث على الضحك أو الداعى إلى المزاح هو السخرية بحال الناس، كأن نسخر من فقرهم، أو من لونهم، أو من ظواهر أبدانهم، أو من عاهات وجدت فى أجسامهم، فإن ذلك يعد عملاً محرماً شرعاً لحرمة ما بنى عليه الأمر حيث نهانا الحق تبارك وتعالى عن السخرية، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ (الحجرات: ١١)

ولأن السخرية من أول أسباب الضحك والمزاح، فينبغى على المسلم أن يحظر من الوقوع فى ذلك الإثم الذى نهانا الله عنه، ولا ينبغى لمسلم عاقل أن يهزأ

بعقول الناس أو بأحوالهم أو حالاتهم لكى يَضحك هو أو يُضحك غيره من هذه السخرية وهذا الاستهزاء.

فإذا كانت السخرية بالآخرين مرفوضة، فإن الاستهزاء بالآخرين عمل لا يقدم عليه إلا الجهلة، وهذا ما بينه نبى الله موسى عليه السلام، عندما أمر قومه بأن يذبحوا البقرة.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧)

وتبين الآية الكريمة أن من يستهزئ بالناس لأى سبب من الأسباب، إنما هو من الجاهلين، ولهذا استعاذ موسى بن عمران عليه السلام من أن يكون واحداً منهم فقال:

«أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين».

وأيضاً يكون الضحك والمزاح من الأمور المحرمة شرعاً إذا أدت إلى نتائج محرمة شرعاً، كأن يؤدى الضحك أو المزاح إلى وقوع الشحناء والبغضاء بين المسلمين، أو بين الناس، أو يؤدى واحد منهما إلى التفريق بين المتجمعين، أو البغضاء بين المتحابين، أو أدى كل منهما إلى حدوث فتنة بين الناس، حينئذ يكون كل منهما محرماً شرعاً.

كذلك إذا ألهى كل منهما صاحبه عن أداء ما هو مكلف به سواء من قبيل الحق سبحانه وتعالى من فرائض وشعائر، أو من قبل المجتمع الذى يعيش فيه من مهام مكلف بأدائها وإتقانها، فإذا أدى الضحك أو المزاح إلى الانشغال عن أداء الواجب ويكون سبباً فى تضييع الحقوق فيكون الضحك والمزاح من الأعمال المحرمة شرعاً.

السخرية المباحة!!

قد يقول قائل: إن السخرية من الآخرين ليست محرمة على التأبيد، وإلا لكان بعض كبار الأنبياء قد وقع فيما حرم الله، لأن هناك أنبياء سخروا من غيرهم ، كما هو ثابت فى كتاب الله تعالى، كما أن الله تعالى سخر من المعرضين عن منهجه فى أكثر من موضع.

ونحن نتفق تماماً على أن السخرية ليست محرمة على طول الخط، ولكنها قد تكون مباحة بل وواجبة فى بعض الأحيان ومن بعض الناس.

فمثلاً العدو الذى يتخذ من السخرية والاستهزاء من المسلمين سلاحاً يشن بها ما يعرف فى العلوم العسكرية بالحرب النفسية، لابد وأن تواجه سخرية هذا العدو بسخرية مثلها، ولكن السخرية من هذا العدو لابد أن تكون قائمة على الحق لا على الباطل، وعلى الصدق لا على الكذب والادعاء والتلفيق، وما أكثر عيوب العدو التى تصلح أن تكون موضع سخرية واستهزاء لكى تُشن عليه حرب نفسية ردّاً على ما يقوم به.

ولنا فى نبى الله نوح عليه السلام المثل والدليل على ذلك، رغم كثرة الأمثلة والأدلة فى كتاب الله تعالى، فنبى الله نوح عليه السلام أمر بأن يصنع سفينته فى موضع لا يتوقع العقل معه أن يكون هذا موضع تبنى فيه السفن، لبعد المسافة بين موضع السفينة التى تصنع وبين مصادر المياه، كما لا يتوقع العقل أن يجرى الماء بالقرب من تلك السفينة، ولأن نوحا عليه السلام كان يدعو قومه إلى ترك عبادة الأصنام، وعبادة الله الواحد، وكان فى ذلك ذهاب السلطة الزمنية من أيدى علية القوم الذين اتخذوه عدوّاً لهم، وكانوا إذا مروا به وهو يصنع الفلك سخروا منه، وضحكوا عليه من صناعته للسفينة فى هذا الموضع، لعدم إدراكهم الحقيقة الكامنة فى أن الله تعالى قادر على كل شىء، وأنه سبحانه وتعالى عندما يقضى للسفينة بالجريان سيأتيها الماء بأمر ربها من كل مكان.

ولأنهم لم يدركوا تلك الحقيقة الدامغة، كان نوح عليه السلام يسخر منهم لعدم

إدراكهم الحق والحقيقة، ويصور ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (هود: ٣٨)

فالسخرية من العدو اللدود، أو الخصم العنيد، قد تكون مباحة وعملاً مشروعاً لا حرمة فيه، لكونها مطلوبة للرد عليه، ولكنها تكون محرمة إذا كانت بين أبناء الدين الواحد، أو المجتمع الواحد، حتى لا تؤدى إلى شحنات وخصومات بين بنى الوطن، أو فرقة بين أبناء الأمة الواحدة.

النبى ﷺ والضحك

كان النبى محمد ﷺ خاتم النبيين، صاحب دعوة وحامل رسالة من أجَلِّ الرسالات السماوية، وأعظمها، حيث جاءت خاتمة لجميع الرسالات، وكان على النبى ﷺ، أن يبلغ هذه الرسالة للناس، وإن يقنع بها عقولهم، ويحبب فيها قلوبهم، ولا يمكن لرجل عابس الوجه، مقطب الجبين، مكفهر الملامح، فظ اللسان، غليظ القلب، أن يكون مبلغاً للناس، ولا حاملاً لرسالة مكلف بتبليغها، وإقناع الناس بها، لأن رسالته لن تصل بأى حال من الأحوال إلى عقولهم ولا إلى قلوبهم.

وحاشا لله أن يتصف نبيه وخاتم رسله بتلك الصفات التى يأباها الطبع الإنسانى، ويعزف عنها الناس، فكان النبى محمد ﷺ يتحلى بأنبل الصفات وأعلاها، ولذا كان وصف الله تعالى له بامتداح أخلاقه، حيث قال الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

وكان أساس هذا الخلق العظيم الذى تحلى به النبى ﷺ، تلك الرحمة التى منحه الله تعالى إياها، وأسبغها عليه لتكون هى أساس هذا الخلق العظيم، الذى من أهم صفاته ومواصفاته أن يكون صاحبه لين الجانب طلق الوجه، بشوشاً، عف اللسان، لين القلب، لأنه لوكان على عكس هذا ما رقت له القلوب، وخضعت له العقول، والتف حوله الناس، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

لهذا كان النبى محمد ﷺ نبى البشر، تضئ أسارير وجهه من السرور، فوصلت رسالته إلى العقول عبر القلوب، حتى تمكنت واستحكمت فى الناس، فأحبوا الرسالة ومبلغ هذه الرسالة.

كما أن الضحك نزعة غريزية متأصلة وأصيلة فى الإنسان، وكان من صفات العرب الذين ينتمى إليهم النبى ﷺ مع جدهم وصرامتهم، يحبون الضحك كبقية البشر، ويهشون للضاحكين، حتى أنهم من حبهم للفكاهة والضحك، أطلقوا أسماء

مشتقة من كلمة ضحك على أولادهم كأسماء لهم، فنراهم يطلقون أسماء «الضاحك، وبشر، وبشار، وباسم، وبسام، وطلق، وطليق، وفرحة، وفرحان، ومسرة، ومسرور». وغير هذه الأسماء على أولادهم.

ونرى العرب إذا ما دعوا لرجل فهم يقولون له: أضحك الله سنك، وإذا مدحوه قالوا عنه: ضحوك السن، وبسام العشيات وهش الضيوف.

على الجانب الآخر، نراهم إذا ما دعوا عليه قالوا: أكلح الله وجهه، وإذا ما ذموا قالوا عنه: عبوس، وكالح وقطوب.

فالضحك والبشاشة وما يشتق منهما كانت من الصفات الحميدة التى أحبها العرب وأحبوا المتصفين بها، وأحق من يوصف بتلك الصفات الحميدة هو النبى محمد ﷺ.

لذلك نرى أبو الفداء الحافظ ابن كثير يروى فى «البداية والنهاية» من الجزء الثالث عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - وصفه لرسول الله ﷺ فيقول أنس: كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس مع صبى، وفى رواية: ومن أفكههم إذا خلا مع أهله.

ونقل ابن الأثير فى أُسْد الغابة، عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: سألت خالتى هند بنت هالة قلت: كيف كانت سيرته ﷺ فى جلسائه؟

قالت: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب (صاخب)، ولا فاحش، ولا عياب.

وقال الشبلنجى فى «نور الأبصار»: وكان النبى ﷺ يمازح الصغير، ويلاعب الوليد، ويمازح العجوز، ولا يقول إلا حقاً.

روى عنه أن امرأة جاءته وقالت: يا رسول الله احملنى على جمل.

فقال ﷺ: إنما أحملك على ولد الناقة.

فقالت المرأة فى عجب: أعلى ولد الناقة يا رسول الله، إنه لا يطيقنى.

«فضحك الحاضرون وقالوا: وهل الجمل إلا ولد الناقة»؟ (اخرجه ابو داود والترمذى والبخارى)

ونقل جوستاف لوبون فى كتابه «حضارة العرب» نقلاً عن المؤرخين العرب فقال: كان ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً، يكثر الذكر، ويقل اللغو، دائم البشر، مطيل الصمت، لين الجانب، سهل الخلق، وكان عنده القريب كالبعيد، والقوى كالضعيف فى الحق سواء، وكان يحب المساكين، ولا يحقر فقيراً لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه.

وذكر الدكتور أحمد الحوفى فى كتابه «من أخلاق النبى» نقلاً عن صاحب كنز العمال: أن علياً بن أبى طالب - رضي الله عنه - ذكر أن رسول الله ﷺ كان دائم البشر، سهل الخلق، وكان أكثر الناس ابتساماً وتبسماً فى وجه أصحابه، وضحك حتى بدت نواجذه، وذكر غيره أن النبى كان أضحك الناس وأطيبهم نفساً.

ووصفت السيدة عائشة رضى الله عنها وجه النبى ﷺ وكيف كان يبرق وجهه وهو مسرور، فتقول كما جاء فى البخارى: إن رسول الله ﷺ دخل عليها مسروراً تبرق أسارير وجهه..أى تبرق الخطوط التى فى جبينه عليه الصلاة والسلام وكأنه القمر.

كما وصفته رضى الله عنها بأنه ﷺ إذا خلا فى بيته كان ألين الناس، بساماً ضاحكاً.

وثبت فى صحيح البخارى، أن النبى ﷺ تبسم وضحك حتى بدت نواجذه، وقال ابن حجر العسقلانى فى شرحه لصحيح البخارى: النواجذ هى الأضراس ولا تكاد تظهر إلا عند المبالغة فى الضحك.

وكان ﷺ يحث دائماً على التبسم والبشر والفكاهة. فقد روى الديلمى أنه ﷺ قال:

«روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت».

وروى الإمام مسلم فى صحيحه، أن النبى ﷺ قال لحنظلة:

«يا حنظلة ساعة، وساعة».

وقصة ذلك ما ذكر الدكتور الحوفى: قال حنظلة: كنا عند رسول الله ﷺ، فوعظنا موعظة رقت لها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فلما رجعت

إلى أهلى، فدنت منى المرأة، وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا فيه، عليه عند رسول الله ﷺ، وأخذنا فى الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فقلت فى نفسى: فقد نافقت، حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادى: نافق حنظلة، نافق حنظلة، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة.

فقال رسول الله ﷺ: «كلا لم ينافق حنظلة».

فقلت يا رسول الله، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلى، فأخذنا حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه.

فقال رسول الله ﷺ :

«يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة، لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»

فالنبى كان دائم البشر والبشاشة والتبسم، وكان ﷺ يخفف عن أصحابه، ويداعبهم ويمازحهم ويحثهم على التبسم وطلاقة الوجه، وينفرهم من العبوس، وتقطيب الجبين، وكان ﷺ لا يعجبه ذلك العبوس، وكان يعجب لمن لا يبتسم فى وجه صاحبه عند اللقاء.

ومما يروى فى الشأن، أن النبى ﷺ ليلة أسرى به من بيت الله الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بفلسطين، وعند معراجه من قبة الصخرة فى القدس، كان ﷺ وصاحبه جبريل إذا مرا بسماء استقبله سكان هذه السماء من الملائكة والأنبياء ضاحكين مستبشرين إلا ملك واحد لم يضحك ولم يبتسم عندما قابل النبى ﷺ.

فكانت حال هذا الملك العابس، مقطب الجبين، موضع تساؤل من النبى ﷺ.
فسأل عنه جبريل عليه السلام: من هذا يا أخى يا جبريل:

فأجابه جبريل عليه السلام: هذا مالك خازن النار، لم يضحك منذ أن خلقه الله تعالى وخلق النار، ولم يضحك لأحد قبلك ولن يضحك لأحد بعدك، ولو ضحك لأحد غيرك لضحك لك يا رسول الله.

رابعاً: كيف ضحك الرسول ﷺ

ثبت أن النبى ﷺ كان أكثر الناس تبسماً، فهل كان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس ضحكاً؟ وإلى أى مدى بلغ الضحك مبلغه من رسول الله ﷺ؟ وكيف كان ضحكه ﷺ؟

لعل الباحث فى النصوص والأسانيد التى جاءت فى هذا الشأن، وما قاله علماء الأمة من السلف، وما رواه الرواة، يجد فريقين اختلف كل منهما مع الآخر حول كيفية ضحك النبى ﷺ.

أحدهما يرى أن النبى ﷺ لم يزد فى ضحكه عن التبسم فقط، بينما يرى الآخر أن النبى ﷺ بلغ منه الضحك حتى ظهرت أضراسه، وكل من الفريقين ساق أدلته من السنة النبوية، حتى بدا للقارئ العادى أن هناك تعارضاً بين تلك الأحاديث النبوية، بينما الواقع العلمى يؤكد أن أدلة كلا الفريقين متوافقة، وليس بينهما أى تعارض، بل هى أدلة متكاملة، كل منهما يعطى توضيحاً وبياناً عن كيفية ضحك النبى ﷺ.

فالقائلون بأن النبى ﷺ لم يزد فى ضحكه عن التبسم استندوا على كثير من الأدلة وما قاله الرواة منها على سبيل المثال:

ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم.

وعن الترمذى عن عبدالله بن الحارث بن جَزء رضي الله عنه قال: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ، وعنده أيضاً، ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً.

وعند الإمام مسلم عن سماك بن حرب قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنه: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟

قال: نعم، كثيراً، كان لا يقوم ﷺ من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس وهو قائم، وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون

ويبتسم رسول الله ﷺ.

وفى رواية أخرى عند الطيالسى قال: كان قليل الضحك، فكان أصحابه ربما ينشدون الشعر عنده، وربما قال الشىء من أمورهم فيضحكون وربما تبسم.

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن الحصين بن يزيد الكلبى رضي الله عنه قال: ما رأيت النبى ﷺ ضاحكاً، ما كان إلا مبتسماً.

اما الفريق الآخر، فقد استند إلى كثير من السنة النبوية الصحيحة التى أكدت أن النبى ﷺ ضحك فى أكثر من موضع، وأكثر من مناسبة، حتى بدت نواجذه وهى الأضراس، والتى لا تكاد تظهر من النبى ﷺ إلا عند المبالغة فى الضحك، وهذا ما ثبت فى البخارى ومسلم وغيرهما، أن النبى ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

ولا تناقض بين ما قاله الأولون من العلماء والصحابة، من أنهم لم يروا من رسول الله ﷺ إلا التبسم، وبين ما ثبت صحته من أن النبى ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه لعدة أسباب أهمها:

أولاً: أن الصحابة رضوان الله عليهم الذين لم يروا من رسول الله ﷺ إلا التبسم، ليس فى ذلك دليل على نفى الضحك من رسول الله ﷺ، ولكنه دليل أن هؤلاء الصحابة لم يشاهدوا إلا التبسم من رسول الله، على أن هذا التبسم كان ملازماً لرسول الله ﷺ.

ثانياً: ليس هناك أى تعارض بين ما ثبت صحته من أن النبى ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وبين حديث السيدة عائشة رضى الله عنها: ما رأيته ﷺ مستجمعاً قط (ضاحكاً) حتى أرى لهواته،

لأن اللهوات (جمع لهاة) وهى اللحمة التى بأعلى الحنجرة من أقصى الفم، كما يقول ابن حجر العسقلانى.

وهذا يعنى أن السيدة عائشة رضى الله عنها ما رأت النبى ﷺ مبالغاً فى الضحك، أو أن الضحك، استجمع عليه، فأقبل عليه بالكلية حتى ظهرت اللحمة

التى بأعلى الحنجرة والمسماة بلسان البلعوم، لأن هذه الحالة لا تكون إلا إذا كانت هناك مبالغة شديدة فى الضحك تصل إلى هذا الحد الذى معه تظهر اللهوات، وهذا ما لم يكن من رسول الله ﷺ.

أما ما ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فهذا لا تعارض فيه، لأن النواجذ وهى الأضراس، تختلف عن اللهوات وهى لسان البلعوم، فظهور الأولى «الأضراس» عند الضحك أمر ميسور، لا يحتاج إلى مبالغة شديدة فى الضحك، أما اللهوات «البلعوم» فإن ظهورها يعنى المزيد من المبالغة فى الضحك والإفراط فيه.

ومن بين الحديثين الصحيحين، نقف على كيفية ضحك النبى ﷺ، حيث كان يضحك مبتسماً، حتى يبلغ منه الضحك مبلغاً تظهر معه أضراسه، دون أن يتجاوز ذلك القدر من الضحك، ولهذا لم تظهر لهواته مطلقاً وإن ظهرت أضراسه ﷺ.

خامساً: صور من ضحك الرسول

١ - حتى تذوقى عسيلته

روى البخارى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها: أن رفاعة القرظى طلق امرأته وبت طلاقها، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير، فجاءت النبى ﷺ فقالت:

يا رسول الله،إنها كانت عند رفاعة، فطلقها آخر ثلاث تطليقات، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير، وأنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة لهدبة أخذتها من جلبابها، قال: وأبو بكر جالس عند النبى ﷺ وخالد بن سعيد بن العاص جالس بباب الحجرة ليؤذن له، فطفق خالد ينادى: يا أبا بكر، يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ، وما يزيد رسول الله ﷺ على التبسم ثم قال:

«لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة، لا، حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك».

فهذه المرأة التى جاءت تشكو زوجها الثانى لضيق يده وفقره وربما لعجزه عند رسول الله ﷺ، جعلت خالداً ينادى من بعيد بعدما سمع حديث المرأة، وما تجهر به عند رسول الله ﷺ من قول اعتبره خالد فجا ولا يليق أن يقال أمام النبى ﷺ، بينما النبى عليه الصلاة والسلام يبتسم متعجباً مما تريد المرأة من شكايتها، ولم يضجر أو يتبرم بما تقول، ولكنه ﷺ أدرك نواياها وكيف اشتياقها إلى زوجها الأول فقال لها وهو يبتسم ولعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة.

فكل هذه الشكوى سبب رغبتك فى الرجوع إلى زوجك الأول الذى تحبينه، لكنه طلقك ثلاث طلقات بنت بها، وأصبحت محرمة عليه حتى تنكحى زوجاً غيره، وهذا حكم الله ولا يجوز أن ترجعى إلى زوجك الذى تريدين حتى تذوقى عسيلته، أى زوجك الثانى ابن الزبير ويذوق عسيلتك.

٢- عدوات أنفسهن

روى البخارى فى صحيحه عن محمد بن سعيد عن أبيه قال: استأذن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته.

فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب، فأذن له النبى ﷺ فدخل والنبى ﷺ يضحك.

فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله بأبى أنت وأمى؟

فقال ﷺ: عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب.

فقال عمر: أنت أحق أن يهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن فقال: ياعدوات أنفسهن أتهبننى ولم تهبن رسول الله ﷺ؟

فقلن: إنك أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ:

«إيه يابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجا إلا سلك فجا غير فجك».

هاتيه النسوة اللاتى رفعن أصواتهن على صوت رسول الله ﷺ كن مثار ضحك النبى ﷺ منهن وعليهن، لتناقض موقفهن بين رسول الله ﷺ، وبين عمر رضى الله عنه، وكان إعجاب النبى ﷺ بما حدث منهن لسماع صوت عمر موضع رضا منه ﷺ، فضحك إعجاباً وضحك راضياً.

ولعل منظر النسوة عندما تبادرن إلى الحجاب، وتدافعن عليه لسماع صوت عمر، كأنهن حمر مستنفرة فرت من قسورة خوفاً ورعباً، وفى التدافع بين النساء، وما يعتلى وجوههن من علامات الخوف والحذر يكون مدعاة للضحك، ولهذا لم يخف النبى ﷺ شعوره بالضحك، عن هذا الموقف الضاحك الذى جاء من تبادر عدوات أنفسهن إلى الحجاب بعد سماع صوت عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٣-الرجوع أولى

من تلك المواقف الضاحكة، أن الرسول ﷺ عندما غزا الطائف وجد صعوبة فى غزوها، فدعا أصحابه إلى ترك الطائف والرجوع إلى المدينة المنورة، فعز ذلك على الصحابة واستكثروا أن يرجعوا إلى المدينة بدون أن يفتحوا الطائف، وحتى لا يكونوا مثار حديث العرب فى عجزهم عن فتح الطائف، فقالوا لن نبرح هذا المكان حتى نفتح الطائف.

فلما جاء اليوم التالى وذهبوا إلى القتال وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم مصابين بكثرة، ولم تفتح أمامهم الطائف رغم ضراوة القتال وكثرة المصابين، وعندما حل المساء، كرر النبى ﷺ دعوته لأصحابه بالعودة إلى المدينة فسكتوا جميعاً، ولم يعترض أحد على دعوة النبى ﷺ بالعودة إلى المدينة، فضحك النبى ﷺ.

فقد روى البخارى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: لما كان رسول الله ﷺ بالطائف قال:

«إنا قافلون غدا إن شاء الله، فقال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ لا نبرح أو نفتحها.

فقال ﷺ: فاغدوا على القتال.

قال: فغدوا فقاتلوهم قتالا شديداً وكثر فيهم الجراحات.

فقال رسول الله ﷺ: إنا قافلون غدا إن شاء الله.

قال: فسكتوا فضحك رسول الله ﷺ.

وضحك النبى ﷺ لم يكن سخرية من أصحابه، لأنهم رضوا بترك فتح الطائف بعدما أصابهم، ولم يكن ضحك المنتصر لرأيه الذى لم يأخذوا به، ولكنه ضحك معجباً راضياً، معجباً بعدم اتباعهم النصيحة، مما أدى بهم إلى كثرة الإصابات بهم لعدم سماعهم النصيحة بالأمس، لأنه أعلم منهم بأن للفتح موعده الذى حدده الله تبارك وتعالى بعلمه وليس الفتح رهن مشيئتهم.

وفى تداخل الموقفين وتناقضهما ما يؤدى إلى الضحك، فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم رفضوا تأجيل الفتح واستكثروا الرجوع إلى المدينة بدون أن يفتحوا الطائف، ولو سمعوا النصيحه آنذاك لكان خيرا لهم لكنهم لم يذعنوا للنصيحة إلا بعد أن وقع بينهم المصابون ولحقت بهم الإصابات، فقبلوا تأجيل فتح الطائف ورحبوا بالرجوع إلى المدينة، ولكن بعدما أصابهم من جراء شدة القتال..وكأنه رجوع المضطر .. وهذا كان داعياً قوياً لأن يثير مشاعر الإعجاب والتعجب فى نفس رسول الله ﷺ، فيعبر عن هذا الموقف بما فيه من تناقضات بالضحك.

٤-على أفقر منى؟!

وكان النبى ﷺ سمحاً، متسامحاً، عفواً، رحيماً، حتى ولو كان ذلك مع من وقع فى معصية الله تعالى.

فقد روى البخارى أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل إلى النبى ﷺ فقال: هلكت.

فقال له النبى ﷺ: وما أهلكك؟؛

قال الرجل: وقعت على أهلى فى رمضان - أى أن الرجل جامع امرأته فى نهار رمضان.

فقال له النبى ﷺ: أعتق رقبة.

قال الرجل: ليس لى.. أى أننى لا أملك رقبة حتى أعتقها.

قال ﷺ: فصم شهرين متتابعين.

قال الرجل: لا أستطيع.

قال ﷺ: فأطعم ستين مسكيناً.

قال الرجل: لا أجد.. أى لا أملك ما أطعم به ستين مسكيناً.

فأُتى النبى ﷺ: بعرق «كيل» فيه تمر، وقال ﷺ:

أين السائل؟

فأتى الرجل، فقال له النبى ﷺ: تصدق به.

فقال الرجل: على أفقر منى؟؛ والله ما بين بيوتها أهل بيت أفقر منا.

فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال:

فأنتم إذن، وفى رواية فاذهب فأطعم به أهلك.

وكان فى تحمل النبى ﷺ الكفارة عن هذا الرجل الذى جامع أهله، وموقف الرجل وتعجبه، أن يكون هناك من هو أفقر منه هو وأهل بيته مدعاة لضحك

النبى ﷺ وبلغ منه الضحك حتى بدت نواجذه.

ولم يغضب النبى ﷺ من تصرف هذا الرجل الذى رفض أو تعجب أن يطعم هذا التمـر الذى أمـر به ﷺ ليطعم أهله، وما كان ﷺ إلا أن ضحك من صراحة الرجل وشجاعته فى التعبير عن حالته، فضحك النبى ﷺ معجباً بذلك راضياً كل الرضا عن أن يأخذ الرجل الكفارة المدفوعة نيابة عنه ليطعم بها أهله.

وتلك إشارة نبوية كريمة، ينبغى أن يتعلمها الدعاة والذين يتصدون للإفتاء بين الناس، فلا يعيبون أحداً وقع فى إثم ولا يلومونه، بل ويتسامحون معه حتى وإن دفعوا عنه الكفارة، أو تحملوا عنه الغرم إذا كانوا يملكون، وتبسموا فى وجه الناس، وأفتوهم بالرأى اليسير عليهم، وما يتناسب مع ظروفهم المعيشية بدون أن يحلوا حراماً أو يحرموا حلالاً.

فهذه لمحة تربوية، توجب على علماء الدين أن يتحلوا بطلاقة الوجه والتبسم فى وجه السائلين لا التقطيب، والتعنيف، وأن يروحوا عنهم ويخففوا عنهم ندمهم عما وقعوا فيه، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

٥- غلظة الأعرابى

كان النبى ﷺ، يتعرض أحياناً لمعاملات فظة من بعض أصحاب القلوب الغليظة. ولعل أعراب البادية كانوا أشد الناس جلافة وغلظة، وكانوا لا يفرقون بين معاملة النبى ﷺ وغيره من الناس، ومع ذلك، كان ﷺ يتجاوز عن فظاظتهم وجلافتهم ويقابلهم إما مبتسماً أو ضاحكاً، رغم جفاء من يتعامل معه.

فقد روى مالك والبخارى ومسلم عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «كنت أمشى مع رسول الله ﷺ - وفى رواية - أدخل المسجد، وعليه ﷺ بُرد (رداء) نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى من أهل البادية من الخلف، فجبذ (أى جذب) النبى ﷺ من ردائه جبذة شديدة (أى أن الأعرابى جذب النبى ﷺ من ذلك الرداء النجرانى الغليظ حتى أثرت فى عنق النبى ﷺ).

قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبى ﷺ، وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدة جبذته.

ثم قال الأعرابى: يا محمد مُر لى من مال الله الذى عندك.

فالتفت إليه (ﷺ) فضحك ثم أمر له بعطاء»

وهذا الموقف الذى يحتوى على كثير من المتناقضات، خاصة أن الذى يطلب أمراً ما، أو يطلب صدقة لابد وأن يطلبها بلين وحياء شديدين، وألا يرفع صوته على المحسن، وأن يأتيه فى وقت يتناسب معه، وأن يبدأ طلبه بالثناء أو الرجاء. لكن هذا الأعرابى لم يفعل هذا، بل طلب الصدقة بأسلوب الآمر الناهى، وبعنف شديد، وكأن الصدقة دين له عند رسول الله ﷺ، مما دعا رسول الله ﷺ إلى الضحك من هذا الأعرابى - ولأن النبى ﷺ يعرف طبيعة الأعراب وفظاظتهم وغلظتهم، ويعلم أنه لو غضب من مثل هذا التصرف، لحدث للرجل مكروه من أصحاب النبى ﷺ، ولأن الرجل لا يدرك ذلك، كان كل هذا داعياً للنبى ﷺ بأن يضحك ويأمر للأعرابى بعطاء.

٦- غرقنا يارسول الله!

عن أنس رضي الله عنه قال: إن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب بالمدينة فقال: قحط المطر فاستسق لنا ربك.

فنظر النبى ﷺ إلى السماء وما نرى من سحاب، أى لم يكن بالسماء سحاب، فاستسقى النبى ﷺ، أى طلب من الله تعالى أن يسقط المطر على المدينة.

فنشأ السحاب بعضه إلى بعض، ثم مطروا حتى سالت مثاغب المدينة، فما زالت إلى الجمعة المقبلة ما تقلع.

ثم قام ذلك الرجل والنبى ﷺ يخطب فقال الرجل: غرقنا، فادع ربك يحبسها عنا.

فضحك النبى ﷺ ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا – مرتين أو ثلاثاً» فجعل السحاب يتصدع عن المدينة يميناً وشمالاً يمطر حوالينا ولا يمطر علينا منها شىء، ليريهم الله كرامة نبيه ﷺ وإجابة دعوته» – رواه البخارى وغيره.

فالنبى ﷺ وهو يخطب الجمعة لم يعرض عن الرجل الذى دخل المسجد لكى يشكو القحط بسبب قلة المطر، وعدم سقوطه ويطلب من النبى ﷺ أن يستسقى ربه ويطلب منه سقوط المطر. ودعا النبى ﷺ ربه وسقط المطر وظل أسبوعاً كاملاً حتى الجمعة التالية وقام نفس الرجل يشكو أيضاً ولكن ليس من القحط أو ندرة المطر، بل من كثرة المطر، فلما وقف فى المسجد وقال: غرقنا فادع ربك يحبسها عنا..كان ذلك داعياً لكى يضحك النبى ﷺ ضحك الراضى المسرور بإجابة الله تعالى لدعواه فأسقط المطر، لكى يقضى العباد مقاصدهم منه وظل إنزال المطر مستمرا حتى شكا الرجل من الغرق بسبب كثرة نزول المطر فكان فى ذلك داع لكى يضحك النبى ﷺ راضياً مسروراً.

٧- أين ذنوبى؟!

وكـان ﷺ يعلم صـحـابتـه ويربيـهم على أن رحـمـة الله وسـعت كل شىء، من خلال ما كان يقصه عليهم من القصص التى أطلعه الله تعالى عليها، وكان بعضها يعجب النبى ﷺ، خاصة مواقف أبطالها، فيضحك النبى ﷺ من سلوكهم.

من هذا ما رواه الإمام أحمد فى سنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ، إنى لأعـرف آخـر أهل النار خـروجاً من النار، وآخـر أهل الجنة دخولاً الجنة.

يؤتى برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها قال: فيقال له: عملت كذا، وكذا، وعملت كذا، وكذا..

فيقول الرجل: يا رب لقد عملت أشياء لم أرها هنا، قال: فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة».

فهذا الرجل يخاف عذاب الله تعالى ويسـأل عن كبار الذنوب التى وقع فيها وأين ذهبت، فـيـضـحـك الـرسـول ﷺ من فـزع هذا الرجل وخـوفـه من عـذاب الله ولهفته على التعلق بأسباب الرحمة والمغفرة، وعن فطرته وبساطته وهو يسأل: أين ذهبت ذنوبى؟!

وقد يكون ضحك النبى ﷺ من حال الرجل عندما لم يخطر ببـاله أن الله تعـالى غـفـور رحـيم، وأنه قـد نحى عنه كبـار ذنوبه، فـإذا هو يسـأل عنهـا ، أو أنه يسأل عن تلك الذنوب الصغيرة التى لا يتذكر أنه فعلها أو وقعت منه، وكان الرجل يسـأل سـؤالاً اسـتـنكاريًا ليـتـبـرأ من تلك الذنوب الصـغـيـرة التى عـرضت عليـه، فيضحك النبى ﷺ من طمع هذا الرجل فى رحمة الله تبارك وتعالى.

٨- بياض حجليها

كان بعض المسلمين تبدو منهم سلوكيات تتنافى مع ما أمر به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وقد يحدث من بعضهم ان يرتكبوا ما نهى الله عنه فى سذاجة وبساطة غريبة، وعندما كانوا يبثون ذلك للنبى ﷺ وسلم ويخبرونه به كان عندما يسألهم ويحاورهم فى أمر ما فعلوه ووقعوا فيه ؛ يجد فيهم بساطة الفطرة وسذاجة الموقف؛ فكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يجد ما يعبر به عما فى نفسه سوى الضحك.

من هذه المواقف على سبيل المثال ما رواه ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إن رجلا ظاهر من امراته (أى قال لها : أنت على كظهر امى) فأتى النبى ﷺ يخبره عما بدر منه فأمره النبى ﷺ بأن يكفر عن ذلك إما بعتق رقبه أو إطعام ستين مسكينا أو صيام شهرين متتابعين قبل أن يمسها كما جاء فى القرآن الكريم فذهب الرجل ثم عاد فى اليوم التالى وأتى النبى ﷺ ليخبره بانه ظاهر من امرأته وغشيها قبل أن يكفر كما أمر الله تعالى بذلك.

فقال له النبى ﷺ (ما حملك على ذلك؟!).

فقال الرجل: يا رسول الله، رأيت بياض حجليها فى القمر فلم أملك نفسى أن وقعت عليها.

فضحك رسول الله عليه الصلاة وأزكى السلام وقال له: (لا تقربها حتى تكفر)

فهذا الرجل المسلم خالف ما جاء فى القرآن الكريم، حيث عاشر زوجته التى ظاهرها قبل أن يخرج الكفارة عن ظهاره، وعندما سأله النبى ﷺ أجاب بكل بساطة وصدق عما دفعه لذلك، مما يدل على بساطته وصدق فطرته، فما كان من النبى ﷺ إلا أن يعبر عما جال بخاطره عن صاحبه بالضحك فقط، مع تذكيره بالحكم الشرعى فى أمره، دون أن يبدر من النبى ﷺ توبيخ أو تحقير أو تعنيف لهذا الرجل، وإنما بادره بالضحك والتذكير الطيب. اللين السهل.

٩- اللهم لا تغفر لأحد

ومن المواقف التى حدثت من بعض المسلمين، وأضحكت النبى ﷺ ما رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، من قصة الرجل الأعرابى الذى دخل المسجد فبال فى ناحية منه، وهمّ الصحابة رضوان الله عليهم بالبطش به، فمنعهم النبى ﷺ من ذلك، وأمرهم بأن يأتوا ببعض الماء ويصبوه على الموضع الذى بال فيه الأعرابى.

فلما حانت الصلاة وصلى الأعرابى خلف رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة دعا الأعرابى بدعاء سمعه النبى ﷺ وهو يقول: (اللهم اغفر لى ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا).

فضحك رسول الله ﷺ وقال: (لقد احتظرت واسعاً)

فهذا الأعرابى البسيط الساذج، لم يجد ما يكافئ به النبى ﷺ على حمايته له من أيدى الصحابة، والذى أراد أن ينتقم منهم فى نفس الوقت، فدعى لنفسه وللنبى محمد ﷺ بالرحمة، راجياً أن يحرم البقية من المسلمين من تلك الرحمة.

وللتوافق التام بين ما كاد أن يحدث للأعرابى على فعلته فى المسجد من الصحابة، وبين دعوته بالرحمة لنفسه ولمحمد فقط دون الباقى، كان هذا التوافق والتداخل وصدق التعبير عما تختلج به النفس داعياً لكى يضحك النبى ﷺ من موقف هذا الأعرابى.

١٠- الضحك على إبليس

وهذا موقف آخر ضحك فيه النبى ﷺ على تصرف سلكه إبليس عليه لعنة الله تعالى، عندما أخذ الملعون إبليس يحثو التراب على رأسه عندما استجاب الله تعالى لدعاء نبيه محمد ﷺ لأمته بالمغفرة.

فقد أخرج ابن ماجه عن عباس بن مرداس السُّلمى، أن أباه أخبره عن أبيه، ان النبى ﷺ دعى لأمته عشية يوم عرفة بالمغفرة فأجيب له، وقال له ربه: إنى قد غفرت لهم ما خلا المظالم، فإنى آخذ للمظلوم منه.

فقال رسول الله ﷺ: (أى رب إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة، وغفرت للظالم) - فلم يجب عشيته.

فلما أصبح بالمزدلفة، أعاد النبى ﷺ، فأجيب إلى ما سأل، فضحك الرسول ﷺ، فقال له أبو بكر وعمر (رضى الله عنهما) بأبى انت وأمى يا رسول الله، إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذى أضحكك؟ أضحك الله سنك.

قال رسول الله ﷺ: (إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب لدعائى وغفر لأمتى، أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ويدعو (على نفسه) بالويل والثبور، فأضحكنى ما رأيت من جزعه).

فكان ضحك النبى ﷺ على موقف إبليس ضحك المنتصر المتفاخر بنصر الله له على عدوه، وكان ضحك الراضى بذلك النصر وبما تحقق لأمته من غفران الله تعالى لهم حتى وإن كان بينهم رجل ظالم، فإن الله سيعوض المظلوم عن مظلمته من نعيم الجنة حتى يغفر بذلك للظالم، فما كان من النبى ﷺ إلا أن يعبر عن زهوه بالنصر، ورضاه بالمغفرة إلا من خلال الضحك.

١١- لست زارعاً

من المواقف التى أضحكت النبى ﷺ ما بدر من أعرابى ما يدل عن ضيق مداركه وعجزه عن فهم ما يرمى إليه النبى ﷺ من أحاديث يراد بها حث المسلمين على عمل الخير وما سيلقونه جزاء لذلك من نعيم مقيم فى جنة الخلد يوم القيامة.

قد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنهما أن النبى ﷺ، كان يوماً يحدث أصحابه وعنده رجل من أهل البادية، فقال ﷺ: (إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع، فقال له: أولست فيما شئت؟!

قال الرجل: بلى ولكنى أحب أن أزرع.

فأسرع وبذر فتبادر الطرف نباته، واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال)

فقال الله تعالى « دونك يابن آدم فإنه لا يشبعك شىء»

فقال الأعرابى الحاضر مجلس النبى ﷺ: يا رسول الله لا تجد هذا إلا قرشياً، أو أنصارياً، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع)

فضحك رسول الله ﷺ..

وكان ضحك النبى ﷺ تعجباً من إدراك هذا الأعرابى وطرافته، حيث تصور هذا الأعرابى، أن الذى سيطلب الاستزراع يوم القيامة فى الجنة هم أهل الزرع، ولأن أهل البادية لا زرع لهم، فلن يكونوا من الذين سيطلبون الزرع فى الجنة.

فضحك النبى ﷺ من ذلك الفهم.

١٢- «خشيت أن أقتل نفسى»

كان النبى ﷺ لا يغضب إذا ما اجتهد أصحابه رضى الله عنهم فى أى أمر من أمور الدين لا نص فيه، وكان ﷺ لا يغضب إذا ما جانب اجتهادهم الصواب،وكان يبتسم ما وفقوا فى اجتهادهم بل ويسر من ذلك ويضحك رضا وسروراً بتوفيقهم.

من أمثلة ذلك، ما أخرجه أبو داود والحاكم والبخارى معلقاً عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل (موضع على مشارف الشام) فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت، ثم صليت بأصحابى الصبح فذكروا ذلك للنبى ﷺ، فقال:

«يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب»؟!

فقلت له يا رسول الله، إن الليل كان بارداً وخشيت أن أغتسل فأقتل نفسى، وتذكرت قول الله تبارك وتعالى ﴿ولا تقتلوا أنفسكم، إن الله كان بكم رحيما﴾

فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً..

فالنبى ﷺ عندما أخبره الصحابة رضوان الله عليهم بما كان من عمرو بن العاص، أراد النبى ﷺ أن يعرف لماذا فعل عمرو هذا وكيف اجتهد أن يصلى إماماً دون أن يغتسل من الجنابة مكتفياً فى ذلك بالتيمم.

وكان اجتهاد عمرو بن العاص رضي الله عنه مبنياً على حجة نصية من القرآن الكريم، فهو خائف على نفسه من الماء البارد فى الليلة الباردة والله تعالى نهى عن قتل النفس أو تحميلها بما لا تطيق، فلما بين للنبى ﷺ حجته، ضحك النبى ﷺ راضياً مسروراً بتوفيق ما وصل إليه عمرو بن العاص من اجتهاد، فلم يقل بعده النبى ﷺ شيئاً.

١٣- لا بيت لى فى الجنة

روى الترمذى عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف آخر أهل النار خروجاً رجل يخرج منها زحفاً فيقال له: انطلق فادخل الجنة.

قال (ﷺ): فيذهب ليدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيرجع فيقول: يا رب قد أخذ الناس المنازل، فيقال له: أتتذكر الزمان الذى كنت فيه؟؛

فيقول: نعم

فيقال له: تمن .. أى تمنى ما تشاء فى الجنة..

فيتمنى، أى أن الرجل تمنٍّ أن يكون له منزل فى الجنة كغيره من الناس.

فيقال له: إن لك الذى تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا،

فيقول الرجل لربه: أتسخر منى وأنت الملك؟!!

قال راوى الحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بعد أن روى النبى ﷺ: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه..

والموقف داع للضحك، فهذا الرجل الذى هو آخر الناس خروجا من النار لا يجد له فى الجنة منزلا يأوى إليه ويسكن فيه، فلا يجد حرجاً من الرجوع إلى ربه وهو به أعلم، فيشكو له عدم وجود المنزل فى الجنة بعد أن أخذ الناس منازلهم..

ويقال له تمن .. فيتمنى الرجل ويحقق الله له ما تمناه وعليه عشرة أضعاف الدنيا لكن الرجل يستكثر كل هذا الفضل ويظن أن ذلك سخرية به أو استهزاء به، ناسياً أن الله يعطى بغير حساب وفضله يعطيه لمن يشاء كيف يشاء، ولا يجد النبى ﷺ ما يعبر به عن إحساسه وشعوره بهذا الموقف الذى أراه الله إياه إلا بالضحك ولا يصلح التعبير عن هذا الموقف إلا بالضحك.

١٤- سقطة المغرور

ومن المواقف التى أضحكت النبى ﷺ ما رواه الترمذى فى الشمائل عن عامر بن سعد قال: قال سعد رضي الله عنه لقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك يوم الخندق حتى بدت نواجذه.

فقال له عامر: كيف كان؟!

قال سعد: كان رجل معه ترس يوم الخندق، وكان سعد رامياً، وكان الرجل يقول كذا وكذا (أى أنه لا يوجد رام يستطيع أن يصيبنى من خلف هذا الترس، فإنه أفضل ما يدفع السهام بهذا الترس)، وكان الرجل يغطى جبهته بالترس.

فنزع له سعد بسهم، فلما رفع الرجل رأسه رماه سعد بسهم فى جبهته فأسقطه على ظهره وانقلب الرجل على ظهره رافعاً رجليه من شدة السقطة.

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه..

فقال عامر لسعد: ومن أى شىء ضحك رسول الله ﷺ؟!

قال سعد : من فعلة الرجل .

فالرجل صاحب الترس يتلاعب به يوم غزوة الخندق ويتحدى فرسان المسلمين بأنه لا يوجد رام يستطيع أن يصيبه بسهم مهما كانت براعته فى الرمى ..

ولما رماه سعد بسهم فى جبهته أسقطه على ظهره وطارت رجلا الرجل فى الهواء ، فما كان من النبى صلى الله عتيه وسلم إلا أن ضحك على التناقض بين ما كان عليه الرجل ساعة التحدى وهو يتلاعب بالترس وبين ما آل إليه الحال بعد أن سقط على الأرض بهذا الشكل المضحك فضحك النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الموقف حتى بدت أضراسه من شدة الضحك.

سادساً: المزاح والمداعبة

ذهب بعض الفقهاء إلى أن المزاح والمداعبة سنة من السنن النبوية ،وان المزاح والمداعبة مع الأصدقاء أو الأهل سنة ليس على المسلم حرج فى اتباعها

ولما سئل سفيان الثورى : هل المزاح هجنة ؟!

أجاب بل سنة ، لقوله ﷺ «إنى لأمزح ولاأقول إلاالحق »

وقصة ذللك ما أخرجه الترمذى والبخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال الصحابة للنبى ﷺ يا رسول الله إنك تداعبنا ؟!

فقال ﷺ: (إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق)

وروى صاحب حياة الصحابة عن ابن عساكر، إن رجلاً سأل عبدالله بن عباس رضى الله عنهما فقال: أكان رسول الله ﷺ يمزح؟!

قال ابن عباس: بلى

فقال الرجل: ما كان مزاحه؟

قال ابن عباس: كسا النبى ﷺ بعض نسائه ثوباً واسعاً، ثم قال البسيه واحمدى الله، وجرى من ذيلك هذا كذيل العروس.

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لى أخ يقال له: أبو عمير رضي الله عنه، كان له (نغير) وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار، وكان أبو عمير يلعب بهذا الطائر فمات وكان أبو عمير حزيناً لموت هذا الطائر، فكان إذا جاء النبى ﷺ فرآه قال له: يا أبا عمير !! مالى أراك حزيناً؟!

قالوا: يا رسول الله مات نغيره الذى كان يلعب به فجعل النبى ﷺ ينظر إلى أبى عمير ويلاعبه ويقول له: يا أبا عُمَير !! ما فعل النُغَيرّ؟!

الحقى زوجك

جاءت امرأة من الأنصار إلى مجلس النبى ﷺ تسأل عن زوجها، فأراد النبى ﷺ أن يمزح معها فقال لها:

(الحقى زوجك ففى عينيه بياض).

فتصورت المرأة أن زوجها أصيب برمد فى عينيه أذهب ما بها من سواد وحول العين كلها إلى بياض، أو تصورت أن بياضاً هيمن على عين زوجها فأرمدها، فأصبح زوجها لا يرى شيئاً، فأسرعت المرأة نحو زوجها مرعوبة خائفة مما سمعت.

فلما وصلت عند زوجها، أخذت تنظر فى عينيه وتطيل النظر وتقلب نظرها فى عين زوجها، فتعجب زوجها فقال لها: ما دهاك؟؛

فقالت المرأة: قال لى رسول الله ﷺ: إن فى عينيك بياضاً.

فقال لها زوجها: (إن فى عينى بياضاً لا لسوء) فالمرأة لم تدرك ولم تفهم أن العين، أى عين لابد وأن يكون بها بياض يحيط بالعدسة، أياً كان لون العين، ولما سمعت ما قاله النبى ﷺ فوهمت أن يكون فى عين زوجها رمد..

لا يدخل الجنة عجوز

ومن مداعبات النبى ﷺ للعجائز، أن امرأة عجوزا من الأنصار أتت النبى ﷺ وقالت له: يا رسول الله، ادع الله لى بالمغفرة وأن يدخلنى الجنة.. وفى رواية أن هذه العجوز سألته الجنة..

فقال لها النبى ﷺ: (أما علمت أن الجنة لا يدخلها عجوز)!!

فصرخت المرأة وانصرفت وهى تنعى حظها فى أنها ستحرم من دخول الجنة، فذهبت وهى فى غاية فى الحزن..

فأرسل لها النبى ﷺ من يقول لها: أما علمت أنك ستبعثين على أحسن حال لك!!، وأنك لن تدخليها وأنت عجوز إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (الواقعة: ٣٥، ٣٧) (أخرجه الترمذى)

يا ذا الأذنين

وأخرج أبو داوود عن أنس رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ يمازحنى : يا ذا الأذنين؛؛

لكن عند الله أنت غال

أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أنس رضي الله عنه، أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً. رضي الله عنه كان يأتى من البادية فيهدى النبى ﷺ الهدية من البادية.

وكان النبى ﷺ يجهزه (أى يهديه بهدية من الحضر).

إذا أراد أن يخرج إلى البادية.

فقال رسول الله ﷺ: إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه. وكان رسول الله ﷺ يحب زاهراً. وكان رجلاً دميماً، وكان يجلس غالباً فى السوق يبيع ما جلبه من البادية ، فأتاه رسول الله ﷺ ذات يوم وهو يبيع متاعه فى السوق. فاحتضنه النبى ﷺ من خلفه وزاهر لم يبصره، فقال: أرسلنى؛؛ أى اتركنى .. من هذا؟ فالتفت فعرف أنه النبى ﷺ، فجعل ظهره لا يألو ما ألصق ظهره لصدر رسول الله ﷺ - أى أن زاهراً لم يتعجل أن يتركه النبى ﷺ، حباً منه فى أن يظل جسده ملتصقاً بجسد النبى ﷺ، حين عرف أن الذى يمسكه من الخلف هو الرسول ﷺ وجعل النبى ﷺ ينادى فى الناس قائلاً: من يشترى العبد؟ وهو يمسك بزاهر من الخلف..

فقال زاهر: يا رسول الله: إذاً والله تجدنى كاسداً. أى انك لم تجد من يشترينى وستكون الباعة إن تمت بخسارة لك يا رسول الله لأن لا ثمن لى.

فقال رسول الله ﷺ (لكن عند الله أنت غال) وتركه النبى ﷺ وهما يضحكان..

فالنبى يداعب صاحبه ويمازحه وسط السوق ويمسكه من الخلف كما يفعل البعض منا ويقول له من أنا، وزاهر يعرف أن الذى يمسكه من الخلف هو الرسول عليه الصلاة والسلام، فيماطل فى السؤال: من هذا؟ .. من هذا؟ ليظل جسده ملتصقاً برسول الله ﷺ حباً فى النبى وحباً فى أن ينال من تلك البركة.

والنبى ﷺ يبالغ فى المداعبة والمزاح مع زاهر فينادى فى الناس من يشترى العبد والناس تعلم كما يعلم رسول الله ﷺ أن زاهراً ليس عبداً وإنما هو حر

والرسول عليه الصلاة والسلام يداعبه ويمازحه.

كما نجد فى صدر الحديث أن النبى ﷺ كان يقبل هدية البادية التى جاء بها زاهر، وكان عليه الصلاة والسلام يجهز زاهراً بهدية من المدينة قبل أن يذهب زاهر إلى البادية، وقد نشأت علاقة حب بين الطرفين، لأن الإهداء سبيل من سبل المحبة. أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار. وذكره صاحب حياة الصحابة.

ادخل كلك

أخرج أبو داوود عن عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك وهو فى قبة من ادم (أى خيمة صغيرة جداً من جلد) فسلمت على رسول الله ﷺ وعلى من معه.

فرد النبى ﷺ علىَّ السلام وقال (ادخل) فقلت متعجباً من صغر القبة: أكلى يا رسول الله؟!!)

فقال ﷺ: (كلك) فدخلت.

بعض دعابات الحى

وأخرج البخارى عن ابن أبى مليكة رضي الله عنه قال: مزحت السيدة عائشة رضى الله عنها عند رسول الله ﷺ، فقالت أمها يا رسول الله بعض دعابات هذا الحى من كنانة؛ فقال رسول الله ﷺ: (بل بعض مزحنا هذا الحى).

أتقول ذلك يا أبا حنظلة؟!

وأخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن أبى الهيثم عمن أخبره بأنه سمع أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه مازح النبى ﷺ فى بيت ابنته أم حبيبة - زوجة النبى رضى الله عنها وهو يقول: والله إلا أن تركتك فتركتك العرب ، وإن انتطحت فيك قالوا: جماء ولا ذات قرن.

والرسول ﷺ يضحك ويقول (أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة)..

بل يغنيك الله!

ذكر صاحب الإحياء أن أعرابياً جاء إلى النبى ﷺ فى يوم ما، والنبى ﷺ متغير اللون مما يدل على غضبه، فأراد الأعرابى أن يسأله عن أمر ما.

فقال له الصحابة رضوان الله عليهم: لا تفعل، فإننا ننكر لونه، فقال الأعرابى: دعونى فوالذى بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يبتسم، ثم ذهب إلى النبى ﷺ وقال يا رسول الله بلغنا أن الدجال يأتى الناس بالثريد وقد هلكوا جوعاً: أفترى لى بأبى أنت وأمى أن أكف عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هزالاً، أم أضرب فى ثريده حتى إذا تضلعت شبعاً آمنت بالله وكفرت بالدجال؟!!

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال (لا بل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين)..

آكله بالعين الصحيحة

روى صاحب العقد الفريد، عن صهيب بن سنان الرومى رضي الله عنه قال: قدمت على رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وبين أيديهم رطب، وقد رمدت إحدى عينىَّ وأنا فى الطريق فأصابتنى مجاعة شديدة فوقعت فى الرطب، أى أخذ يأكل منه بشراهة، فتعجب عمر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله الا ترى كيف يأكل صهيب الرطب وهو أرمد؟!

فقال ﷺ: يا صهيب تأكل الرطب وأنت أرمد؟!

فقلت يا رسول الله، إنما آكل بشق عينى الصحيحة

فتبسم النبى ﷺ..

سابعاً: مزاح نعيمان والرسول صلى الله عليه وسلم

ضحك منها عاماً

أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أم سلمة (زوجة النبى) رضي الله عنها قالت إن أبا بكر - رضي الله عنه - خرج إلى بصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة - رضى الله عنهما - وكلاهما بدرى (نسبة إلى غزوة بدر) .

وكان سويبط مسئولاً عن الزاد فى هذه الرحلة فطلب منه نعيمان طعاماً فى غيبة أبى بكر رضي الله عنه قائلاً يا: سويبط أطعمنى، فقال له سويبط حتى يجئ أبوبكر: أى أنك لن تأخذ من الطعام شيئاً حتى يأتى كبيرنا أبوبكر.

وكان نعيمان رجلا، مضحاكا مزاحا فقال لسويبط إن لم تطعمنى فسأبيعك للناس ..فقال سويبط افعل ماتشاء .

فذهب نعيمان يبحث عن مشتر لسويبط «وكان حرا » فوجد إناسا جلبوا ظهرا ««معهم إبل » فقال لهم : ابتاعوا منى غلاما عربيا فارها ؟

قالوا :نعم

قال نعيمان : لكنه ذولسان ، ولعله يقول لكم أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك «لهذا السبب » فدعونى لا تفسدوه على ، أى أنكم إذا رأيتم أن تشتروه فاعلموا أنه سيقول انا حر، وإن أنتم أردتم أن تشتروه فلا تسألوه وخذوه بدون أن تردوا عليه ، وإلا فاتركوه حتى لا تفسدوه على .

فقالوا : بل نبتاعه ،وبعد أن عاينوه من بعيد دفعوا فيه عشرة قلائص ..

فأقبل نعيمان «يسوقها أمامه ويقول لهم دونكم هو ذا !

فأدرك سويبط أن نعيمان باعه فعلا ،فقال لهم : إنه رجل كاذب وانا رجل حر ..

فقالوا :قد أخبرنا خبرك ،وطرحوا الحبل فى رقبته وذهبوا به .

فلما حضر أبو بكر رضى الله عنه وسأل عن سويبط أخبره نعيمان الخبر ، فذهب أبو بكر مسرعا نحو هؤلاءالناس هو وأصحابه وردوا القلائص العشر ،وأخذوا سويبط بعد أن فكوا الحبل من على رقبته .

وعندما عادوا إلى المدينة ،أخبروا النبى ﷺ بما حدث وما كان من نعيمان

وسوييط فضحك النبى ﷺ هووأصحابه منها حولا ...

أى أن النبى ﷺ ظل يضحك على مدى عام من هذه المزحة عندما يتذكرها أو يرى سوييط أو نعيمان ،وقيل إن هذا العام الذى كان ﷺ يضحك كلما تذكر هذه الواقعة كان العام الأخير من حياة النبى ﷺ لأن سفر أبى بكر رضى الله عنه إلى بصرى كان قبل وفاته عليه ﷺ بعام ،ولو عاش النبى ﷺ بعده لظل يضحك على هذه المزحة حتى آخر أيام حياته مهما طالت..

هدية يدفع ثمنها الرسول

جاء فى كتاب «الإصابة فى تمييز الصحابة »لابن حجر : أن نعيمان بن عمرو الأنصارى رضى الله عنه من أصحاب رسول الله ﷺ،كانت له مزاحات كثيرة مع رسول الله ﷺ ،ومع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من هذه المزاحات :

أنه وجد رجلا يبيع جرات من العسل فاشترى واحدة منها ولم يدفع الثمن للبائع، وأخذ الجرة والبائع إلى باب رسول الله ﷺ، وقال للبائع انتظرنى ها هنا، ذهب نعيمان ليهدى إلى رسول الله ﷺ جرة عسل، زعم أنه اشتراها من أعرابى.

خرج نعيمان من عند رسول الله ﷺ بدون الجرة، قال للأعرابى صاحب الجرة اجلس هنا أمام الباب وخذ الثمن من صاحب هذه الدار.

فقسم النبى ﷺ العسل على أهل بيته ولم يخرج النبى ﷺ من داره، وكان الأعرابى قد انتظر وقتاً طويلاً، فلما استغيب أهل الدار، صاح يا أهل الدار ألا أعطى ثمن عسلى؟

فلما سمع النبى ﷺ ما قاله الأعرابى على الباب قال: «إحدى هنات نعيمان».

فأرسل فى طلب نعيمان، فلما حضر قال له: «يا نعيمان ما حملك على ما صنعت؟؛»

فقال نعيمان: أردت برك يا رسول الله ولم يكن معى شىء..

فضحك النبى ﷺ وأعطى للأعرابى حقه..

غرمها على الرسول

أخرج ابن عبد البر فى « الاستيعاب» نقله صاحب «حياة الصحابة »عن ربيعة بن عثمان رضي الله عنه قال :جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فدخل المسجد وأناخ ناقته

بفناء المسجد ودخل على رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة لنعيمان بن عمرو الأنصارى رضي الله عنه يا نعيمان ماذا لو نحرت هذه الناقة فأكلناها، فإنا قد قرمنا (اشتهينا) إلى اللحم، ويغرم (أى يدفع ثمنها للأعرابى رسول الله ﷺ) فنحرها النعيمان، ثم خرج الأعرابى، فرأى راحلته قد نحرت وهرب النعيمان، فصاح الأعرابى: وا عقراه يا محمد .فخرج النبى ﷺ فوجد ناقة الأعرابى قد نحرت، وهو يصرخ بجوارها فقال ﷺ: «من فعل هذا؟!»

قالو النعيمان يا رسول الله

قال ﷺ: «وأين ذهب؟!»

قالوا: ذهب ها هنا وأشاروا إلى الناحية التى فر إليها النعيمان.

فاتبعه النبى ﷺ يسأل عنه فوجده فى دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب – رضى الله عنهما – وقد اختفى فى خندق فى الدار وجعل عليه الجريد وسعف النخيل.

فأشار إليه رجل (إلى حيث يختفى نعيمان تحت الجريد وسعف النخيل فى الحقول) وهو يقول: ما رأيته يا رسول الله وهو يشير بأصبعه حيث هو.

فأخرجه النبى ﷺ وقد تغير وجهه من أثر السعف الذى سقط عليه والأتربة، فقال له ﷺ.. «ما حملك على ما صنعت؟!»

فقال نعيمان: الذين دلوك علىّ يا رسول الله هم الذين أمرونى، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عن وجه نعيمان أثر السعف والتراب وهو يضحك.

قال ربيعة: ثم غرمها ـ أى دفع ثمن الناقة التى نحرها نعيمان ـ رسول الله ﷺ..

«يدخل الجنة ضاحكاً»

وجاء فى «كنز العمال، والعقد الفريد» وذكرها الحوفى فى كتابه «من أخلاق النبى» أن النبى ﷺ قال: يدخل نعيمان الجنة ضاحكاً، لأنه كان يضحكنى، وذلك أن النبى ﷺ زاره وهو أرمد فوجده يأكل تمراً، فقال له ﷺ: أتأكل تمراً وأنت أرمد؟!

فقال نعيمان: إنما آكله من الجانب الآخر، فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه.

ثامناً: من مزاح النبى ومداعباته مع أهل بيته:

هذه بتلك

أخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت: خرجت مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره وأنا جارية، لم أحمل اللحم ولم أبدن.

فقال النبى ﷺ للناس: «تقدموا» - أى اسبقونا فى السير وسنلحق بكم - فتقدموا.

ثم قال -ﷺ- لى: تعالى حتى أسابقك فسابقته، فسبقته، فسكت عنى حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت وخرجت معه فى بعض أسفاره فقال للناس: تقدموا، فتقدموا ثم قال لى: تعالى أسابقك فسبقنى، فجعل يضحك ويقول: هذه بتلك.

هذه إحدى مداعبات النبى ﷺ ومرحه مع نسائه، وعندما أراد ذلك جعله بينه وبين زوجته، ولم يجد حرجاً فى أن يطلب من رفاقه من الناس أن يسبقوه، ويخلو له المكان حتى يمرح مع أهل بيته ويسابقهن ويسابقونه، ويلاعبهن ويلاعبونه بعيدا عن أنظار الناس وعيونهم، فلا مانع ولا حرج فى ذلك ما دام اللعب بعيداً عن عيون الآخرين، حتى لا يطلع أحد على العورات إن بدت.

فلا حرمة فى ملاعبة الزوج لزوجته بالتسابق أو بأى نوع من أنواع المداعبات واللعب، بشرط أن يكون ذلك فى مكان يأمن الإنسان فيه على اطلاع الغير لما يحدث.

والنبى ﷺ عندما ضحك بعد أن فاز على زوجته السيدة عائشة رضى الله عنها، لم يكن ضحكه ضحك المنتصر الذى قهر خصمه، ولكن كان ضحكه ضحك المسرور بإدخال السعادة والسرور على أهل بيته، وزوجته وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى».

رفقاً بالقوارير

أخرج الإمام أحمد والبخارى فى الأدب عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال: إن النبى ﷺ كان فى مسير وكان حادى - يسمى أنجشة يحدو بنساء النبى ﷺ وكن يركبن على الإبل فى هوادج وكان هذا الحادى ينشد الشعر بين الجميع وبينهم نساء النبى ﷺ قال أنس: أتى النبى ﷺ على بعض نسائه ومعهن أم سليم رضى الله عنهن، فقال : «يا أنجشة رويداً سوقك بالقوارير»

قال أبو قلابة - رضي الله عنه : فتكلم النبى ﷺ بكلمة لو تكلم بعضكم لعبتموها عليه قوله: سوقك بالقوارير».

فالنبى ﷺ عندما وجد ان أنجشة ينشد الشعر، خشى النبى ﷺ أن يقع فى قلوب النساء بعض من هذا الحداء، أو ان يصيبهن هذا الحداء بشىء من الفتنة فأراد النبى ﷺ آن يأمر أنجشة بالسكوت والكف عن هذا الحدو أو أن يخفف لغة الشعر الذى يحدو به خشية على النساء لم يكن ذلك بالأمر المباشر بل كان من خلال المداعبة والملاطفة، قال ﷺ : «رويداً سوقك بالقوارير» أى مهلاً يا أنجشة فإن من يستمع إليك نساء وهن يشبهن القوارير الزجاج سريع الكسر - ليس لديهن قوة تماسك وهذا الحدو قد يصيبهن بمكروه.

فأهل البيت «الزوجة والولد» هم أولى بالسرور والضحك والمداعبة والمزاح وإدخال السرور عليهم وأن ذلك فيه فضل وعليه أجر وعلى المسلم أن يتعلم من رسول الله ﷺ كيف يدخل السعادة والسرور على أهل بيته ولا حرج على المسلم البتة أن يتفنن فى إدخال السرور على أهل بيته وإسعادهم دون أن يؤدى ذلك إلى تضييع الحقوق والواجبات وأولها الحقوق والواجبات التى أمر بها الله تعالى، ودون أن يقترف الإنسان ما نهى الله عنه .

ويعيب المسلم أن يكون سعيداً مع الناس، يسعى بكل ما يملك إلى إدخال السرور عليهم ولا يكون على هذا النهج فى بيته فيكون بذلك قد ضيع من يعول.

أدخلانى فى سلمكما!

وأخرج أبو داود عن النعمان بن البشير رضي الله عنه قال: استأذن أبو بكر رضي الله عنه فى الدخول على النبى ﷺ فأذن له، فسمع صوت عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنها عالياً على رسول الله ﷺ فغضب لذلك أبو بكر رضي الله عنه فلما دخل تناولها أمسكها ليلطمها - ليضربها كيف ترفع صوتها فوق صوت رسول الله ﷺ؛

قائلاً: ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟!

فجعل النبى ﷺ يحجزه ليمنع أبا بكر من أن يضرب السيدة عائشة رضى الله عنهما ، وظل به رسول الله ﷺ حتى خرج أبو بكر عنه مغضباً.

فلما خرج أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو ولم يمكنه الرسول ﷺ من لطم عائشة، نظر ﷺ إلى عائشة قائلا: «كيف رأيتينى أنقذتك من الرجل».

فضحكا وانتهى ما كان بينهما من موقف ارتفع فيه صوت السيدة عائشة رضى الله عنها ومكث أبو بكر رضي الله عنه أياماً، ثم ذهب لزيارة بيت الرسول ﷺ، ثم استأذن على رسول الله فوجدهما قد اصطلحا قال لهما أبو بكر: أدخلانى فى سلمكما كما أدخلتمانى فى حربكما.

فقال رسول الله ﷺ: «قد فعلنا ».

فأبو بكر رضي الله عنه أخذته الغيرة على رسول الله ﷺ عندما سمع صوت ابنته عائشة ترفع صوتها على رسول الله ﷺ، وحاول أن يلطمها جزاء فعلتها وحال بينه وبينها رسول الله ﷺ، ولم يمكن أبا بكر من أن يضرب السيدة عائشة فوجد النبى ﷺ فى ذلك فرصة لكى يصلح ما أفسدته عائشة فبعد أن خرج أبو بكر غاضباً بين النبى للسيدة عائشة كيف يحبها وكيف يخاف عليها وفى نفس الوقت يداعبها مستعرضاً قوته فيقول لها: «أرأيت كيف أنقذتك من الرجل»، فتضحك السيدة عائشة رضى الله عنها وهى التى كانت ترفع صوتها وينتهى ما بين الزوجين من مشادة كلامية ارتفع فيها صوت الزوجة على زوجها وأى زوج إنه رسول الله ﷺ.

ولم يغضب النبى ﷺ من ذلك ولم يجعل من ذلك زريعة لكى يستمر الشقاق

أو النزاع فى بيت الزوجية بل بكل لطف ورقة داعب النبى ﷺ زوجته وبين لها أنه كان يمكن له أن يترك أبا بكر ينتقم لرسول الله ﷺ ولكنه أبى ذلك ومنع عنها الأذى ثم لاطفها به

وعندما تمت المصالحة وأتى أبو بكر رضي الله عنه بعدما كان قد خرج غاضباً من فعل ابنته وعاد فوجد الأمور قد عادت سريعاً إلى مسارها الصحيح، لم يجدد ما مضى أو يعاتب فيه لكنه أراد رضي الله عنه أن يداعب الزوجين «صاحبه وابنته» ويمازحهما فيقول لهما: كما أدخلتمانى فى حربكما وخلافكما من بعضكما البعض وجعلتمانى أغضب، أدخلانى فى سلمكما وصلحكما حتى أسعد بكما..

وكان الرد فيه أيضاً مداعبة من رسول الله ﷺ: قد فعلنا قد فعلنا حتى يهنأ الجميع ويسعدون بالبشر والمداعبة والابتسام والضحك.

لطخى وجهها

أخرج أبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أتيت النبى ﷺ، بحريرة قد طبختها له، وسودة رضى الله عنها حاضرة، فقلت لسودة رضى الله عنها، والنبى ﷺ يجلس بينى وبينها: كلى فأبت.

فقلت لها: لتأكلين أو لألطخن وجهك.

فأبت سودة رضى الله عنها، فوضعت يدى فى الحريرة فطليت وجهها من الحريرة، فضحك النبى ﷺ.

ثم وضع النبى ﷺ يده فى الحريرة، وأعطى لسودة رضى الله عنها وقال لها: «لطخى وجهها » وهو ﷺ يضحك لها.

فمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال. يا عبد الله، يا عبد الله، فظن النبى ﷺ، أن عمر يستأذن ليدخل على رسول ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام لزوجتيه عائشة وسودة رضى الله عنهما: «قوما فاغسلا وجهيكما».

من هذه الحادثة نكتشف أكثر من جانب إنسانى فى بيت النبوة، فكل من

عائشة وسودة رضى الله عنهما من الضرائر ومع ذلك يحدث بينهما مثل هذه المزاحات والمداعبات ورسول الله ﷺ لم يجد ما يعبر عن شعوره وما تكنه نفسه عما يحدث إلا من خلال الضحك على تلك الممازحة، بل أراد النبى ﷺ أن يتعادل الطرفان فشاركهما المزاح وأخذ يعطى زوجته سودة رضى الله عنها من الحريرة لتلطخ بها وجه زوجته عائشة رضى الله عنها ليتواصل الضحك والسرور بين الجميع لا يقطعه إلا ظرف طارئ وهو مناداة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيأمرهما النبى ﷺ أن يقوما فيغسلا وجهيهما.

خرج الأعور

أخرج أبو يعلى عن رزينة رضى الله عنها مولاة رسول الله ﷺ، أن سودة اليمانية - زوج النبى - رضى الله عنها - جاءت لعائشة رضى الله عنها تزورها وعندها حفصة بنت عمر رضى الله عنهما.

فجاءت سودة فى أجمل هيئة وفى حالة حسنة، عليها برد من دروع اليمن وخمار - كذلك، وعليها نقطتان مثل الفرستين من حبر وزعفران، وكانت النساء يتزين به.

فقالت حفصة لعائشة - رضى الله عنها: يا أم المؤمنين يجئ رسول الله ﷺ وهذه (تقصد سودة) بيننا تبرق؛؛

قالت عائشة رضى الله عنها: اتقى الله يا حفصة.

فقالت حفصة رضى الله عنها: لأفسدن عليها زينتها.

فقالت سودة - رضى الله عنها: ما تقلن وكان فى أذنها ثقل (أى كان سمعها ضعيفاً).

فقالت حفصة رضى الله عنها: يا سودة، خرج الأعور، تقصد المسيح الدجال.

فقالت سودة: نعم؛؛، وفزعت فزعاً شديداً وجعلت تنتفض بشدة، ثم قالت:

أين أختبئ؟؛

فقالت حفصة: عليك بالخيمة، عليك بالخيمة، وكانت هناك خيمة لهم من سعف النخيل يختبئون فيها.

فذهبت سودة فاختبأت فيها، وفيها القذر ونسيج خيوط العنكبوت والأتربة.

فجاء رسول الله ﷺ وهما تضحكان لا تستطيعان أن تتكلما من الضحك، فقال ﷺ لهما: «لماذا الضحك؟» ثلاث مرات وهما لم تستطيعا الكلام من كثرة الضحك.

فأومأتا بأيديهما إلى الخيمة، فذهب ﷺ إلى الخيمة فإذا سودة رضى الله عنها ترتعد، فقال لها ﷺ يا سودة مالك؟

قالت سودة رضى الله عنها: يا رسول الله؛! أخرج الأعور؟

قال ﷺ: ما خرج وليخرجن، ما خرج وليخرجن، فأخرجها من الخيمة وأخذ ينفض عنها الغبار ونسيج العنكبوت.

فروا من عمر!

أخرج ابن عدى وابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان جالساً فسمع ضوضاء الناس، والصبيان فإذا حبشية تزف والناس حولها.

فقال ﷺ: «يا عائشة تعالى فانظرى»!

قالت عائشة: فوضعت خدى على منكبيه، فجعلت أنظر ما بين المنكبين إلى رأسه، فجعل ﷺ: يقول يا عائشة ما شبعت؟، فأقول: لا لأنظر منزلتى عنده.

فطلع عمر بن الخطاب فتفرق الناس والصبيان، فضحك رسول الله ﷺ وقال: رأيت شياطين الإنس والجن فروا من عمر.

حديثة السن تحب تلهو!

وعند البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها، قالت: والله لقد رأيت النبى ﷺ يقول على باب حجرتى، والحبشة يلعبون بالحراب فى المسجد ورسول الله ﷺ يسترنى بردائه لأنظر إلى لعبهم بين أذنه وعاتقه، ثم يقوم من أجلى حتى أكون أنا الذى أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو.

ما أهجر إلا اسمك

أخرج الشيخان البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عائشة إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غاضبة».

فقلت: من أين تعرف ذلك؟!

فقال ﷺ: «إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين: لاورب محمد، وإذا كنت على غاضبة قلت: لاورب إبراهيم».

فقلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك.

لو سألتنى النفقة؟!

أخرج الإمام مسلم والنسائى واللفظ للإمام أحمد، عن جابر رضى الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبى ﷺ جالس فلم يؤذن له.

ثم أقبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه رضى الله عنهن، وهو ﷺ ساكت..

فقال عمر رضي الله عنه – وفى رواية أبو بكر – لأجعل النبى ﷺ يضحك، فقال عمر: يا رسول الله؛ لو رأيت ابنة زيد–زوجة عمر– سألتنى النفقة آنفاً، فوجأت – ضربت – عنقها؟!

فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال ﷺ: هن حولى يسألننى النفقة؛

فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة ليضربها وكلاهما يقولان: تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده؟!

فنهاهما رسول الله ﷺ عن ضرب السيدة عائشة والسيدة حفصة رضى الله عنهما حتى قالتا: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده.

فقالت عائشة رضى الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه فقال ﷺ: إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تتعجلى حتى تستأمرى أبويك ثم تلا قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

قالت عائشة رضى الله عنها: فقلت: أفى هذا أستأمر أبوايَّ؟!

فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه كلهن فقلن مثلما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها.

اللهم إنها كانت تضحكنى فأضحكها فرحاً

ذكر صاحب العقد الفريد، واورده صاحب «من أخلاق النبى» أن سويداء كانت تضحك السيدة عائشة رضى الله عنها، فيضحك رسول الله ﷺ ثم إنه افتقدها فقال ﷺ: يا عائشة ما فعلت السويداء؟؛

فقالت عائشة رضى الله عنها: إنها مريضة، فذهب النبى ﷺ يعودها، فوجدها فى مرض الموت، فقال لأهلها: إذا توفيت فأخبرونى.

فلما توفيت أخبروه، فشهد جنازتها وصلى عليها رسول الله ﷺ، ثم وقف على قبرها وقال: اللهم إنها كانت حريصة على أن تضحكنى فأضحكها فرحاً.

أبو تراب

جاء فى البخارى عن سهل بن سعد قال: إن كانت أحب أسماء على رضى الله عنه لأبو تراب، وإن كان ليفرح أن ندعوه بها، وما سماه أبو تراب إلا النبى ﷺ: إن علياً رضي الله عنه غاضب يوماً فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوجة على رضى الله عنهما، فخرج على فاضطجع إلى الجدار فى المسجد، فجاءه النبى ﷺ يتبعه، - فسأل عنه - فقال هو ذا مضطجع فى الجدار، فجاءه النبى ﷺ، وقد امتلأ ظهر على رضي الله عنه تراباً من أثر الجدار الذى اضطجع عليه.

فجعل النبى ﷺ يمسح التراب عن ظهر على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وهو يقول له: «اجلس يا أبا تراب».

فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه خرج من بيته بعد مشادة بينه وبين زوجته فاطمة رضى الله عنها، وكان خروج على رضي الله عنه من البيت خشية أن تبدر منه فى حالة الغضب ما لا يليق بجناب فاطمة رضى الله عنها، وحتى لا تزداد حدة الغضب، فحسم الأمر بخروجه من البيت إلى أن تسكن ثورة الغضب من كل منهما.

وكان من كرم خلق النبى ﷺ أن توجه إلى على رضي الله عنه ليترضاه، وأخذ يمسح التراب عن ظهره ليبسطه، ولم يعاتبه أو يلومه على مغاضبته لابنته السيدة فاطمة رضى الله عنها والتى يحبها النبى ﷺ ويكن لها كل تقدير واحترام لما لها من منزلة رفيعة عنده ﷺ.

فلم يذهب النبى ﷺ إلى ابنته فاطمة رضى الله عنها ولكنه ذهب خلف على رضي الله عنه يمازحه ويداعبه بالكنية التى كانت هى أحب الأسماء عند على كرم الله وجهه، وهى كنية أبى تراب. وذكر ابن إسحاق، أن علياً إذا غضب على فاطمة فى شىء لم يكلمها، بل كان يأخذ تراباً فيضعه على رأسه، وكان النبى ﷺ: إذا رأى ذلك عرف فيقول: مالك يا أبا تراب؟!

تعرس فى بيتى!!

وكان ﷺ يداعب أهل بيته حتى وإن كان فى أشد حالات المعاناة، حتى ولو كان يعانى آلام المرض، ويكابح آلام الموت. فقد روى البيهقى وذكره ابن كثير فى «البداية والنهاية» عن عبيد الله بن عبدالله عن عائشة رضى الله عنها قالت:

دخل على رسول الله ﷺ وهو يصدع (يعانى الصداع من شدة المرض الذى مات فيه ﷺ) وأنا - والكلام للسيدة عائشة رضى الله عنها: أشتكى رأسى، فقلت: وارأساه!

فقال ﷺ: «بلي يا عائشة، وارأساه!»

ثم قال: وما عليك لو مت قبلى فوليت أمرك وصليت عليك وواريتك؟!

فقلت: والله إنى لأحسب لو كان ذلك (أى حدث ذلك) لقد (أراك) خلوت ببعض نسائك فى بيتى (بعد موتى) من آخر النهار، فضحك رسول الله ﷺ ثم تمادى به وجعه واستعز به..

وفى رواية ابن إسحاق، أن النبى ﷺ عندما شكت له السيدة عائشة من الصداع فقال:

«بل أنا والله يا عائشة وارأساه» ثم قال:

«وما ضرك لو مت قبلى، فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟

فقالت عائشة: والله لكأنى بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى (بعد دفنى) فأعرست فيه ببعض نسائك..فتبسم رسول الله ﷺ واشتد عليه المرض...

فالنبى ﷺ وهو يعانى ألم المرض الذى مات فيه لا يفارقه التبسم، ولا تفارقه أن يداعب أهل بيته ويمازحهم ويبش فى وجوههم، ليصرفهم عن ألم التفكير فى ما لحق النبى ﷺ وما لحق به من مرض وصداع، وقبل أن تنشغل السيدة عائشة رضى الله عنها بمرض النبى ﷺ أو تفكر فى مرضها يداعبها النبى ﷺ وهو يقول لها: ماذا لو مت قبلى..وهى تداعبه وتضاحكه بأنها تظن أنه

لو حدث وماتت فلن يحزن عليها النبى ﷺ طويلاً، بل سيتخذ من بيتها فى ليلة موتها فراشاً لواحدة من نسائه، فيضحك النبى ﷺ ويضاحك أهله رغم مرارة وألم ما يعانيه من مرض.

سيدة هذه الأمة

وكان ﷺ إذا ما رأى حزناً فى وجه أحد من المسلمين، أو راى هماً أو غماً، سأل عن سببه ويظل بصاحبه حتى يذهب عنه الهم والحزن ويجعله يبتسم أو يضحك.

فقد ثبت فى الصحيحين البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: اجتمع نساء النبى ﷺ عنده-وكان ذلك فى المرض الذى أصاب النبى ﷺ آخر أيام حياته ومات فيه ﷺ، فتجمعت نساء النبى ﷺ عنده-لم يغادر منهن امرأة.

فجاءت فاطمة بنت رسول الله-رضى الله عنها-تمشى لا تخطئ مشيتها مشية أبيها، فقال لها النبى ﷺ: «مرحباً بابنتى» ثم أقعدها عن يمينه أو شماله، ثم سارّها بشىء فبكت، ثم سارّها فضحكت».

فلما أن قامت فقلت لها: (أى عائشة قالت لفاطمة): خصك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين، فضحكت، أخبرينى بما سارك به-رسول الله ﷺ؟؛

فقالت-فاطمة (رضى الله عنها): ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ..

فلما توفى النبى ﷺ، ذهبت عائشة إلى فاطمة رضى الله عنهما وقالت لها: أسألك لما لى عليك من الحق لما أخبرتينى.

قالت فاطمة - رضى الله عنها: أما الآن فنعم، سارنى فى الأول-رسول الله ﷺ - فقال لى: «إن جبريل كان يعارضنى فى القرآن كل سنة مرة، وقد عارضنى فى هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى، فاتقى الله واصبرى، فنعم السلف أنا لك فبكيت. ثم سارنى فقال ﷺ: أما ترضين أن تكونى سيدة نساء

المؤمنين أو سيدة هذه الأمة فضحكت.

فالنبى عليه صلوات ربى وبركاته عندما أسر لابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها بما يشير إلى أنه سيموت فى هذا المرض بكت السيدة فاطمة رضى الله عنها لما سيؤدى ذلك إلى الفراق بين الابنة وخير الآباء.

ولما رآها النبى ﷺ تبكى أراد أن يذهب عنها هذا الحزن وهذا البكاء فبشرها بأنها سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت السيدة فاطمة رضى الله عنها بهذه البشارة التى بشرها بها أبوها خير خلق الله جميعاً عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم..

أول أهلى

وروى البيهقى وذكره الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزلت سورة:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

لما نزلت هذه السورة، دعا رسول الله ﷺ السيدة فاطمة رضى الله عنها وتلاها عليها وقال: «إنها قد نعت إلى نفسى» أى أن هذه السورة أخبرتنى بدنو أجلى ـ فبكت السيدة فاطمة رضى الله عنها..

فلما رآها النبى ﷺ تبكى قال لها: « اصبرى فإنك أول أهلى لحوقا بى» فضحكت السيدة فاطمة رضى الله عنها..

الخاتمة

وأخيراً وليس بآخر!!

الصحيح من السنة وما جاء فى السيرة النبوية، قد أثبت أن النبى محمداً ﷺ، كان من أبش الناس وأطلقهم وجهاً، وثبت أنه ﷺ كان يمازح ويداعب ويضاحك المسلمين عامة وأصحابه وأهل بيته خاصة..

ولم لا؟ فقد كان ﷺ حامل رسالة، ومكلفاً بتبليغها للناس جميعاً، بل للإنس والجن معاً، وقد وهبه الله تعالى رحمة من عنده، صار بها ألين الناس جانباً، وما كان ﷺ فظاً ولا غليظاً، بل كان ﷺ أرحم الناس بالناس، وأكثرهم تبسماً ولم لا والنبى ﷺ قدوة لكافة المسلمين وأسوتهم جميعاً، فهو ﷺ، الأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة للناس جميعاً، والمسلمين بصفة خاصة ووجوبية الأمة اتباعه فهم مكلفون باتباع النبى ﷺ فى شئون دينهم ودنياهم.

- فلا حرج على المسلم أن يكون دائم التبسم، طلق الوجه، بشوشاً، ولا عيب فى أن يضحك المسلم إذا اقتضى الأمر أو دعا الموقف إلى ذلك. فقد تبسم النبى ﷺ وضحك عليه الصلاة والسلام حتى بدت نواجذه.

-بل إن على المسلم من الحين للحين، أن يمازح أهله وأن يداعبهم، وأن يدخل عليهم السرور والبهجة ما أمكنه ذلك، خاصة عندما تشتد بنا أزمات الحياة أو يدق ناقوس الشر باب بيوتنا الزوجية، أو ينفخ فيها أبواق الفرقة، فإن المسلم بكياسته وفطنته يستغل أى موقف ليحول الخلاف الأسرى إلى مزاح، والنكد العائلى إلى بهجة، كما فعل النبى ﷺ عندما دخل أبو بكر رضي الله عنه ليضرب السيدة عائشة رضى الله عنها، عندما سمع صوتها يعلو على صوت رسول الله ﷺ وتغاضبه.

لكن النبى ﷺ، يتدخل ليمنع أبا بكر من ذلك، وبعد أن ينصرف أبو بكر يداعب النبى ﷺ السيدة عائشة ويمازحها ويقول: رأيت كيف منعتك من الرجل؟!

بل على رب الأسرة وجوباً التوسعة على أهل بيته، وإدخال السرور عليهم ما لم يكن فى ذلك تضييعاً لحق من حقوق الله، أو حقوق العباد.

-كما لا ينبغى للمسلم أن يجعل الضحك للضحك، أو فى كل وقت أو يقضى الساعات أو الليالى يجلب الضحكات، فلم يكن الضحك عند النبى ﷺ غاية، ولم يكن متواصلاً سيطر على كل الوقت أو على جزء كبير من الوقت، فكان ﷺ يضحك إذا دعا الموقف إلى الضحك، أو احتاج الموقف إلى مداعبة أو ممازحة بالحق والصدق..

فالضحك فى حياتنا ينبغى أن يكون بقدر ما تدعو إليه الحاجة والضرورة، بدون إفراط فيه أو تفريط، فلم يثبت أنه ﷺ جلس ليلة كاملة أمام المضحكات، أو حتى أنه جلس عدة ساعات أو سويعات يمارس الضحك، ولكنه ﷺ كان أغلب ضحكه التبسم، وكان يضحك بمقدار ما تدعو إليه الحاجة أو ما يستدعيه الموقف.

- كما لا ينبغى على المسلم أن يتخذ السخرية من الناس أو الاستهزاء بهم أو تحقيرهم أو التقليل من شأنهم، مادة يضحك عليها أو يُضحك الناس من خلالها.

ويحرم عليه أن يجعل من غباء الغير، أو فقره، أو مرضه، أو أى علة فيه، مادة للضحك أو إضحاك الغير، وينبغى أن يكون مزاح المسلم ومداعباته قائما على الحق، وأن يبتعد قدر الإمكان عما لا يرضى عنه الله تبارك وتعالى، وإذا ما حدث فليتب إلى الله.

- كما أنه ليس من صحيح الإسلام، بل ليس من الإسلام مطلقاً، أن يعاشر المسلم الناس بوجه عبوس، دائم التقطيب، فظاً فى الوجه والقول، غليظاً فى المعاملة، بل على المسلم وجوباً أن يتعامل مع كافة الناس مسلمين وغير مسلمين والمسلمين أخص بوجه طلق بشوش، دائم الابتسام، وأن يكون ليناً فى قوله وفعله مع الآخرين، حتى وإن خالفهم الرأى، لقوله تعالى فى «وقولوا للناس حسناً».

وقوله ﷺ:

- «تبسمك فى وجه أخيك صدقة»

- «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت»

- «كل معروف صدقة، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»

-«بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»..

أهم المراجع

القرآن الكريم

١–التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)	فخر الدين الرازى
٢– الجامع لأحكام القرآن الكريم	الإمام القرطبى
٣– تفسير القرآن العظيم	ابن كثير
٤– صفوة التفاسير	د.محمد على الصابونى
٥– فتح البارى بشرح صحيح البخارى	ابن حجر العسقلانى
٦– الترغيب والترهيب	للمنذرى
٧– البداية والنهاية	ابن كثير
٨– سيرة ابن هشام	لابن هشام المعافرى
٩– حياة الصحابة	يوسف الكاندهلوى
١٠– فقه السيرة	د.محمد سعيد البوطى
١١– قصص القرآن الكريم	محمد المولى
١٢– أسد الغابة	ابن الأثير
١٣– حياة محمد	د.محمد حسين هيكل
١٤– من أخلاق النبى	د.أحمد الحوفى
١٥– السخرية فى القرآن الكريم	د.عبد الحليم حفنى
١٦– جحا الضاحك المضحك	عباس محمود العقاد
١٧– طرائف العرب ونوادرهم	محمد رضوان
١٨– حضارة العرب	جوستاف لوبان

الفهرس

تم جمع الجمع والتنفيذ
بمركز 4H للكمبيوتر
ت: ٠١٠/٦٦٧٤٣٣٥